العدد السابع والعشرون
1434 هـ / 2013 م

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة - تصدر سنويا

1434 هجرية 2013 ميلادية

- من أسس بناء الشخصية الإنسانية من منظور تربوي إسلامي.
- المجاهد أحمد الشريف السنوسي ودوره في حركة الجهاد الليبي.
- بعض معالم الثقافة المقاصدية للإمام عبد الملك الجويني.
- نصوص للمستشرقين أنصفوا فيها الإسلام.

نصوص للمستشرقين أنصفوا فيها الإسلام

د.عبدالرازق درغام أبو شعيشع عيسى
الجامعة الأسمرية - ليبيا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد ....

فقد أنزل الله تعالى الإسلام للبشرية؛ ليخرجها من الظلمات إلى النور، ويبين لها طريق الحق من الباطل، وبما أن الإسلام يتميز بأنه دين عالمي فقد حدث اتصال بين الشرق والغرب، وبخاصة بعد الفتح الإسلامي للأندلس، وتأسيس حضارة إسلامية في الغرب قائمة على الرقي والتقدم والازدهار، وتقدم المسلمين في شتى العلوم الدينية واللغوية والتطبيقية أحس الغرب أنه جاهل أمام هذا الخضم الزاخر من المعارف فتم الاتصال بينهما، فبدأ الغرب يُرسل من أبنائه من يدرس اللغة العربية في بلاد المسلمين، وبعد فترة وجيزة بدأ تأسيس كراسٍ للدراسات الاستشراقية في الغرب، تُعنى بتدريس العلوم الإسلامية والشرقية، وبعد أسر لويس التاسع في مدينة المنصورة بمصر أثناء الحملات الصليبية فكر ملياً في إيجاد وسيلةٍ غير السلاح لغزو المسلمين، فانتهى إلى الغزو الفكري الذي يغزو عقول الشباب والفتيات، ويشكك المسلم قليل الثقافة في قيمه وأخلاقياته وتراثه العظيم المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وما خلفه علماء المسلمين من تراث ضخم أثروا به المكتبة الإسلامية، فبدأ الغرب التأليف والتصنيف، وكان كل مستشرق كتب ما تكنه نفسه، فوجدنا الحاقد والحاسد والمنصف والمسلم الذي تجرد للحق عن اقتناع بعد دراسة لكل ما وقع تحت يده من فكر، والمنصف غير المسلم، وكل يعبر عما يكنه تجاه الإسلام، ولقد صدق الله تعالى عندما قال: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1].

والحقيقة أن الاستشراق قد شغل حيزاً كبيراً من الكتابات العربية؛ وذلك لأن الحضارة الغربية التي نشأ فيها الاستشراق هي الحضارة الغالبة في العصر الحاضر. فقد كتب المستشرقون في شتى القضايا الإسلامية ابتداءً من القرآن الكريم وتفسيره، والكتابة حول الإسلام، وحياة المسلمين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومما أضاف إلى أهمية الاستشراق أن البعثات العلمية إلى ديار الغرب بدأت منذ بداية القرن التاسع عشر في عهد محمد علي والي مصر، وبعض الحكام المعاصرين له في العالم الإسلامي. وقد تلقى بعض أبناء المسلمين العلوم الإسلامية على أيدي المستشرقين، فمنهم من تأثر، ومنهم من لم يتأثر، ولم يتوقف الأمر عند هذا فقد استضافت بعض الجامعات العربية والإسلامية عدداً من هؤلاء للتدريس فيها، وإلقاء المحاضرات العلمية كما حدث في الجامعة المصرية حين استضافت بعض المستشرقين لتدريس آداب اللغة العربية، وقد غفل كثير من الناس عن شهادات من المستشرقين أنصفوا فيها الإسلام، وأقروا بالحق الصراح، ولذا آثرت أن أدلو بدلوي في الكتابة في هذا الموضوع الهام. وقد دفعتني **أسباب عدة لاختيار هذا الموضوع**، من أهمها ما يلي:

1- إطلاع الداعية على كتابات غير المسلمين عن الإسلام، ومعرفة أصناف المستشرقين، ليؤسس دعوته لغير المسلمين إلى الإسلام على تلك الكتابات؛ ليتراجع الذين يهاجمون الإسلام عن جهل بحقائقه التي اعترف بها غير المسلمين الذين نطقوا بالحق.

2- من باب قول الله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾[2] فان هذه النصوص ممن لم يؤمن بالإسلام.

(1) سورة آل عمران آيتا : 114/113.
(2) سورة يوسف الآية : 26.

3- تقديم هذه النصوص للقارئ الغربي الظالم للإسلام، أو الجاهل بحقيقته؛ ليراجع موقفه من الإسلام.
4- تقديم تلك الشهادات للقارئ المسلم؛ ليزداد ثقة بالإسلام وسمو سماحته، وليقوى عزمه في الدفاع عن الإسلام في مواجهة الحملة الغربية الشرسة على هذا الدين العظيم، ولا يتأثر بما يثار من شبهات حول الإسلام.
5- ليعلم الناس الفروق والتمايزات في مواقف الآخرين، حتى لا تعمم الأحكام فتظلم المنصفين والمجتهدين، عندما تضعهم في سلة واحدة مع المغرضين والمزيفين.
6- ليعلم الذين شنوا حملة شعواء على الغرب أنه ليس كتلة واحدة صماء، ولا يمكن اختزاله في مشروع واحد وهو نصب العداء للإسلام والمسلمين.
7- أكتب في هذا الموضوع في الوقت الذي يتهم فيه الإسلام بالإرهاب والعنف والقسوة في الوقت الذي يذبح فيه المسلمون، وتغتصب نساؤهم، وتذبح أطفالهم، ويقتل فيه شيوخهم ولا أحد ينكر هذه الاعتداءات؛ لأنها لا تمس حياتهم، وينادون أن المسيحية دين السلام والمحبة، ألا فليطالع هؤلاء ما سطره المنصفون من المستشرقين، والذين دفعهم حب الحق أن يدونوه دون إكراه ولا إغراء، وإن كانوا قدحوا في الإسلام في جوانب أخرى.

منهج البحث: سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي: حيث قمت باستقراء النصوص الواردة في كتب المستشرقين أنفسهم، والتي سطروها بأقلامهم الدالة على إنصافهم للإسلام في القضايا التي تناولوها.

ولا أستطيع أن أحصي كل ما سطره المستشرقون المنصفون، ولكن أسوق بعض النصوص في القضايا المهمة التي تنفع المسلم – وإن كان غيرها لا يقل عنها أهمية، وتجعله يزداد ثقة بدينه مهما طال الزمان على الإسلام وأصوله.

خطة البحث:

اشتمل هذا البحث على تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

أما التمهيد فسأتناول فيه تعريف الاستشراق وأهدافه وأصناف المستشرقين.

وأما المبحث الأول: ما فيتصل بسماحة الإسلام مع غير المسلمين.
والمبحث الثاني: فيتصل بشخص النبي ﷺ،
والمبحث الثالث: فيتصل بالإسلام،
ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج والمصادر والمراجع.

تمهيد:

تعريف الاستشراق: كثيراً ما يتردد هذا المصطلح على ألسنة الناس وفي وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة، وفي الكتب، وبخاصة عندما يكون الحديث عن الغزو الفكري أو الثقافي وآثاره السيئة، وقد بالغ البعض في ذم الاستشراق وكل ما يمت إليه بصلة، بينما يرى البعض أن الاستشراق إنما هو جهد علمي لدراسة الشرق، وبخاصة بعض الذين تتلمذوا على أيدي بعض المستشرقين حيث يرون فيهم المثال في المنهجية والإخلاص والدقة وغير ذلك من النعوت المادحة، وكلا النهجين مرفوض؛ لأن الاستشراق له جانب إيجابي في خدمة الإسلام[1]، وآخر سلبي متمثلاً في الطعن في الإسلام، والتشكيك في أصوله وثوابته.

وليس هناك أشق على الدارس من التعريف بالأفكار العلمية المجردة؛ لأن العلم قابل للتطور دائماً، وهذا التطور يكشف عن أمور كانت خافية من قبل ربما لعدم وجودها، ثم جاءت بعد ذلك، ولذلك فإن إعطاء تعريف شامل جامع مانع لعلم الاستشراق ضرب من المحال، لأن كل تعريف يتناول جانباً من جوانب العلم، ولذلك اختلف الباحثون في إيجاد تعريف موحد للاستشراق، رغم أن هذا الاختلاف شكلي وجزئي، إلا أنهم يتفقون فيما بينهم على عناصر مشتركة للاستشراق والمستشرقين، ويعود ذلك إلى تصور كل واحد منهم لحقيقة الاستشراق وأهدافه، وعلى كل حال فهو في صورته العامة كما عرّفه إدوارد سعيد: "مجموع الدراسات التي يقوم بها أهل الغرب عن الشرق: دياناته، وأعراقه، وثقافاته"[2].

(1) مثل المؤلفات التي دونها المستشرقون في خدمة الإسلام ومنها كتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ومفتاح كنوز السنة، وهما من أوسع الموسوعات العلمية في تخريج الحديث النبوي تأليف الدكتور المستشرق : أ. ى . فنسنك .

(2) الاستشراق: إدوارد سعيد: ترجمة/كمال أبو ديب –مؤسسة الأبحاث العربية– بيروت ط2 – 1984.ص: 38.

ولقد قدّم أحمد عبد الحميد غراب مجموعة من التعريفات للاستشراق استناداً إلى العديد من المراجع في هذا المجال ثم اختار أن يجمع بينها في تعريف واحد هو: "دراسات أكاديمية" يقوم بها غربيون كافرون – من أهل الكتاب بوجه خاص– للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب: عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخاً، ونظماً، وثروات، وإمكانات، بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريّات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي"[1].

وقيل هو: " كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين (شرقيين وغربيين بما في ذلك السوفيت) وأمريكيين من دراسات أكاديمية (جامعية) تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة، أو الفكر، أو الفن"[2].

وقيل هو "تعبير أطلقه غير الشرقيين على الدراسات المتعلقة بالشرقيين شعوبهم، وتاريخهم، وأديانهم ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية ويلدانهم وسائر أراضيهم وما فيها من كنوز وخيرات وحضارتهم وكل ما يتعلق بهم[3].

والمتأمِّل في هذه التعريفات يجد أن جلها يتناول الاستشراق من جانب دراسة الغربيين لعلوم الشرق وثقافته ودينه ولغته وثرواته الطبيعية والبشرية والإمكانات المتنوعة من أجل الدخول للمسلمين من هذه المحاور.

والمستشرقون هم الذين يقومون بالدراسات الاستشراقية من غير الشرقيين ويقدمون دراستهم ونصائحهم ووصاياهم:

- للمبشرين بغية تحقيق أهداف التبشير.
- للدوائر الاستعمارية بغية تحقيق أهداف الاستعمار[1].

---

(1) رؤية إسلامية للاستشراق أحمد عبد الحميد غراب، ط2، المنتدى الإسلامي، 1411. ص: 7.

(2) الاستشراق : مازن المطبقاني – المكتبة الشاملة ص : 6.

(3) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : عبدالرحمن حبنكة الميداني : دار القلم ط 8 /2000/1420 ص : 120.

أهداف الاستشراق:

لم يقف المستشرقون عند هدف واحد بل تعددت أهدافهم فشملت الجانب الديني والسياسي والاستعماري وغيرها من أجل تحقيق أهدافهم المنشودة، وهاك بيانها:

1- الهدف الديني: تتداخل الدوافع مع الأهداف أحياناً فإن الهدف الديني الذي أراد الاستشراق تحقيقه كان دافعه الأساس، يقول آصف حسين: إن رجال الدين النصارى رأوا قوة الإسلام واندفاع كثير من النصارى للدخول فيه واستيلاء الإسلام على أراض كانت النصرانية هي الدين الوحيد فيها حتى أصبح النصارى قله فخاف هؤلاء على مكانتهم ومكاسبهم الدنيوية والدينية مما أجج أحقادهم فكان لابد أن يقفوا في وجه الإسلام حيث إنه ليس في الإسلام طبقة رجال دين أو أكليروس كما في النصرانية [2].

ويمكن القول بأنهم يريدون أن يحققوا من خلال الهدف الديني ما يلي:

1- تشكيك المسلمين بنبيِّهم وقرآنهم وشريعتهم وفقههم، ففي ذلك هدفان: ديني واستعماري.

2- تشكيك المسلمين بقيمة تُراثهم الحضاري، ويَدَّعُونَ أنَّ الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلاَّ نَقَلَةً لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، ولم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري، وكان في حضارتهم كل النقائص، وإذا تحدَّثُوا بشيء عن حسناتها – وقليلاً ما يفعلون – يذكرونها على مضض مع انتقاص كبير.

3- إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من قِيمٍ وعقيدة ومُثُلٍ عُلْيَا، ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم، فيكونون عبيداً لها، يجرُّهُمْ حُبُّهَا إلى حُبِّهِمْ أو إضعاف روح المقاومة في نفوسهم.

---

(1) المصدر السبق، ص: 121.

(2) آصف حسين." المسار الفكري للاستشراق " ترجمة مازن مطبقاني ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. العدد السابع ربيع الثاني 1413، ص 566-592.

4- إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم، وكذلك يفعلون في البلاد العربية، يجهدون لمنع اجتماع شملها ووحدة كلمتها بكل ما في أذهانهم من قدرة على تحريف الحقائق، وتَصَيُّدِ الحوادث الفردية في التاريخ ليصنعوا منها تاريخاً جديداً يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربية والتفاهم على الحق والخير بين جماهيرها؛ لأنهم رأوا النتائج الإيجابية من خلال تحقيق المسلمين لتلك الوحدة.

يقول الدكتور مصطفى السباعي – رحمه الله – "وهنالك دافع آخر أخذ يتجلى في عصرنا الحاضر بعد استقلال أكثر الدول العربية والإسلامية، ففي كل سفارة من سفارات الدول الغربية لدى هذه الدول سكرتير أو ملحق ثقافي يحسن اللغة العربية؛ ليتمكن من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة فيتعرف إلى أفكارهم، ويبث فيهم من الاتجاهات السياسية ما تريده دولته، وكثيرًا ما كان لهذا الاتصال أثره الخطير في الماضي حين كان السفراء الغربيون – ولا يزالون في بعض البلاد العربية والإسلامية – يبثون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبين الدول العربية والدول الإسلامية، بحجة توجيه النصح وإسداء المعونة بعد أن درسوا تماماً نفسية كثيرين من المسؤولين في تلك البلاد، وعرفوا نواحي الضعف في سياستهم العامة، كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم"[1].

2 – الدافع الاستعماري:

عمد المستشرقون إلى دراسة الإسلام وعلومه وآدابه خدمة للمخطط الاستعماري الذي يهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامي، فكانت الدراسات الاستشراقية بغية تحقيق ما يلي:

(1) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط1، الرياض 1420هـ، 1999م. ص23- 24.

1- اكتشاف مواطن القوة في الشعوب المسلمة- عناصر المقاومة الإسلامية الروحية والمعنوية- التي تقف حائلاً أمام السيطرة الاستعمارية، ثم بث عوامل الوهن والارتباك في تفكير المسلمين، لإفقادهم الثقة بأنفسهم وتراثهم، وتنمية مواطن الضعف التي تجعل في المسلمين قابلية للاستعمار بأشكاله وأساليبه الحديثة والمعاصرة.

2- العمل على ارتماء الشعوب المسلمة في أحضان الغرب الاستعماري، والإقبال على الأفكار والثقافات الغربية المادية اللادينية.

3- إحياء الدعوات والنعرات الجاهلية، وإحلال المفاهيم القومية والوطنية الضيقة، ومن ثم تشتيت شمل الأمة المسلمة الواحدة التي تجمعها رابطة: وحدة العقيدة وأخوة الإيمان، ومن ثم يتسنى لهم تفتيت العالم الإسلامي؛ ليسهل عليهم استعمارياً وسياسياً وعسكرياً، وإن لم يتحقق ذلك فيهتم كل مجتمع بقضاياه، ولا يهتم بقضايا الآخرين كما هو حاصل الآن في قضايا المسلمين فكل يعني بنفسه.

يقول القس سيمون: "إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية". ويقول لورانس بروان: "الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي".

3: الدافع السياسي: ظهر الدافع السياسي وراء الدراسات الاستشراقية على النحو التالي:-

1- أنه لما خضع العالم للاستعمار الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين اضطرت الدول الاستعمارية إلى تعليم موظفيها في المستعمرات لغات أهلها وآدابهم وتاريخهم وتراثهم حتى يتمكنوا من سياسة شعوب تلك البلاد، وتوجيهها لقبول السياسات الاستعمارية.

2- لمّا رحل الأجنبي عن البلاد الإسلامية وتحررت الشعوب من سيطرته العسكرية، أراد الغرب الصليبي أن يكون له في قنصلياته وسفاراته رجال لهم زاد جيد من الدراسات

الاستشراقية، لكي يقوم هؤلاء الرجال بالمهام التي تخدم سياسة الغرب وأطماعه في المنطقة. ومن هذه المهام:

أ- الاتصال برجال الفكر والأدب والسياسة والصحافة وإقامة علاقة مودة وصداقة معهم، ومن ثم استخدامهم في بث الاتجاهات السياسية والفكرية التي تريدها الدول الاستعمارية.

ب- الاتصال بالعملاء والأجراء الذين تربوا في أحضان الغرب ومعاهده، ومن ثم تزويدهم بما يساعدهم على القيام بمهمة خدمة الغرب.

ج- إحداث الفتن والثورات والانقلابات السياسية والاجتماعية والثقافية في العالم الإسلامي.

طوائف المستشرقين:

المستقر في ذهن كثير من الناس أن المستشرقين كلهم طائفة واحدة وتوجه واحد، وأن هدفهم جميعاً هو الطعن في الإسلام وأصوله وثوابته، لكن بالدراسة الفاحصة نلحظ أنهم ينقسمون إلى طوائف مختلفة، وكل طائفة تعبر عن توجهها التي تعتقده، وهاك طوائف المستشرقين:

الطائفة الأولى: التي درست علوم الإسلام دراسة مستوعبة، وفتحت قلبها وشرح الله صدرها للإسلام.

الطائفة الثانية: التي اكتفت بالوصف الموضوعي للإسلام وما وجدته من المؤلفات فيه، فلمتغير ولم تبدل.

الطائفة الثالثة: التي ظلت في فلك التنصير والاستعمار، وعرفت الحق ولكنها حرفته[1].

ورغم أن كثيراً من الغربيين سلطوا أقلامهم للطعن في الإسلام وأصوله ومصدريه: القران والسنة، إلا أن العدالة والإنصاف يدعواننا إلى إبراز الوجه المشرق الحضاري المتمثل في العلماء الغربيين الذين عبروا عن موضوعية العلم الغربي، وأثمن ما في الثقافة الغربية عندما درسوا الإسلام وحضارته دراسة العلماء المجتهدين فأنصفوه وشهدوا

(1) الإسلام في مواجهة التحديات: محمد رأفت سعيد - دار الوفاء بالمنصورة – مصر – ط: 1 – 1987 .ص 52.

له شهادات صدق نقدرها نحن المسلمين، ونقدمها للإنسان الغربي الذي ضلله الإعلام الغوغائي، عندما شحن عقله ووجدانه بثقافة الكراهية السوداء للإسلام والمسلمين، قائلين لهذا الإنسان الغربي، إننا ندعوك إلى كلمة سواء، إلى أن تقرأ شهادات هؤلاء العلماء الغربيين العدول، العلمية والموضوعية التي أنصفت الإسلام وأمته وحضارته[1].

وما أُسطِّره من شهادات واعترافات للمستشرقين ليس خاصاً بفترة محددة، ولا فئة خاصة من المستشرقين، ولا مدرسة استشراقية بعينها، ولكن أتيت بنماذج من جل العصور، ومختلف البلدان، وشتى انتماءات المستشرقين إلى مدارسهم المتنوعة؛ ليتضح الحق، ويفتخر المسلمون بدينهم، ويقلل من الذين يهجمون عليه، ويشنون حملتهم وطعونهم ضد الإسلام والمسلمين، والمتتبع لما كتبه المستشرقون يجد أنهم لم يقروا بالحق في جانب واحد من جوانب الإسلام، بل تعدت هذه الاعترافات وذلك الإنصاف ليشمل الإسلام بمصدريه القران والسنة، وشخص النبي ﷺ، والفتوحات الإسلامية، والحدود، والإعجاز العلمي والتشريعي والعددي، وكل ما يتصل بالإسلام من قضايا صغيرة أو كبيرة.

المبحث الأول:
سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين

لم يخل عصر من العصور منذ فجر الدعوة الإسلامية ممن سطر شهادات من غير المسلمين من العلماء والمفكرين ظاهرة بينة، لما رأوا من سماحة هذا الدين، وتيسيره ما بهر عقولهم، وأخذ بألبابهم، ورأوا من سلوك أهله ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدوَّن التاريخ شهاداتهم له ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة، حتى يفخر المسلمون، ويعتزوا بإسلامهم، ويقرأ غير المسلمين الذين لم يفقهوا دين الله تعالى هذا الإنصاف؛ حتى لا يفترون عليه.

(1) الإسلام في عيون غربية : محمد عمارة : دار الشروق- مصر ط 1 – 1425 /2005م ص 76/75.

وإذا كان هؤلاء قد سطروا اعترافات بعدل وسماحة الإسلام فإنما يدل على أنهم أقروا بالحق لما تجردت قلوبهم من الجهل والتعصب للمسيحية، وحقد التحامل على الإسلام وأهله، وكان ذلك عن اقتناع منهم، دون إجبار ولا مجاملة.

وللمستشرقين تراث ضخم في نقد الإسلام، ومدحه وقدحه، وهو تراث قائم رائج، وله آثار بعيدة المدى بين الأجيال الجديدة. ونحن على أية حال نتلقى بحوث المستشرقين بما تستحقه من تأمل وحذر، ولئن كنا لا نستطيع تجاهل ما فيها أحياناً من دسٍ وجورٍ وجهالةٍ. فإننا لا ننتقص ما قد يرد فيها من صواب وإنصاف، وحسن إدراك وأصالة حكم. وبين يدي كتاب كبير عن الدعوة إلى الإسلام ألفه بالإنجليزية سير "توماس أرنولد"[1] وهو بحث واسع في تاريخ نشر العقيدة، توفر على وضعه هذا المستشرق. وفى الكتاب وثائق قيمة تكشف عن طبيعة انتشار الإسلام في أغلب أقطار العالم أو فيها كلها. وقد بذل الرجل جهداً واضحاً ليكون منصفاً في أسلوبه واستدلاله في بعض الجوانب، لكن مما لا شك فيه أنه انحرف كثيراً عن جادة الصواب لتمسكه بعقيدته القديمة، وإخلاصه لوظيفته العتيدة، وخضوعه لكثير من المؤثرات التاريخية والسياسية جعله يميل عن الصواب وهو يرسل بعض الأحكام عن الشريعة الإسلامية وعن وسائل امتداد الإسلام في الأرض.

ومن باب إحقاق الحق وجب علي أن أذكر ما كتبه هذا المستشرق مدحاً في الإسلام، وبخاصة في جانب انتشاره، والتي تدل على زيف دعاوى انتشار الإسلام بالسيف والعنف والحرب والإكراه، تلك الدعاوى التي روج لها، ولا يزال مشروع الهيمنة الغربية، فيعلن بالحقائق الموضوعية أن انتشار الإسلام إنما حدث بهذه الصورة المدهشة في سرعتها وقوتها، لسببين أساسيين:

---

(1) توماس أرنولد (1280-1349 هـ = 1864-1930 م) مستشرق انكليزي. من أهل لندن. تعلم في كمبردج. وعين مدرسا في كلية عليكره بالهند سنة 1888 فأستاذا للفلسفة في لاهور، فرئيسا للكلية الشرقية في جامعة البنجاب. وعاد إلى لندن، فعين أستاذا للعربية في جامعتها سنة 1904 فميدرا لمعهد الدراسات الشرقية. وزار مصر قبيل وفاته. له كتب بالإنكليزية في (تعاليم الإسلام) و (المعتزلة) و(الخلافة) وقد تُرجم الأخير إلى العربية وطبع. وله كتب بالإنكليزية أيضا في الفن والرسم الإسلاميين، ساعده فيها لوي بنيون من رسامي الفنون الشرقية. قال آربري: كان آرنولد مرجعا في الشؤون الإسلامية. الأعلام للزركلي ج 2 ص 94.

أولهما: الضعف الذاتي الذي أصاب المسيحية وكنائسها المتناحرة كأثر من آثار جناية الثقافة الهلينية الغربية على النصرانية الشرقية، وما أثمرته من الانقسامات الحادة والتناقضات العدائية في صفوف المؤسسات الكنسية إبان مراحل الظهور والانتشار للإسلام.

وثانيها: سماحة الإسلام وبساطته ومنطقه العقلاني، والقوة الذاتية التي امتلكها وتميز بها هذا الدين عن غيره من الديانات[1].

وفي الوقت الحاضر يعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي، وهي شاهد على سماحة الإسلام جعلت المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد يقول: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة"[2].

وقال أيضاً: "إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح لأنهم أقلية وسط الكثرة من المسلمين، فلو أن المسلمين لديهم أدنى ظلم لقضوا عليهم"[3].

وقال أيضاً: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي"[4].

ولو وجد هذا المستشرق أدنى إكراه لما تردد في ذكره وترديده حتى يبغض المسلمين في دينهم، ويصرف غير المسلمين عن الدخول في الإسلام.

وقال أيضاً: "لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة"[1].

---

(1) الإسلام في عيون غربية : محمد عمارة ص : 79.
(2) الدعوة الإسلامية لتوماس أرنولد مكتبة النهضة، مصر، ط 3، 1970م ص 242.
(3) المرجع السابق : ص 70.
(4) المرجع السابق : ص 99.

ولو كان هناك اضطهاد لغير المسلمين ما سعدوا بالأمان والاستقرار والحرية والرفاهية وممارسة شعائرهم بحرية تامة.

ويقول غوستاف لوبون عن معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: وكان عرب أسبانيا خلا تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية، فيرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربا منهم مؤخراً[2].

لأن الإسلام يتميز بالشمولية فلا يعنى بجانب على حساب الآخر، بل كل تعاليمه سواء، لكن لكل درجته.

وقال أيضاً: "رأينا من آي القرآن أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته" وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا. قال روبرتسن في كتابه "تاريخ شارلكن": "إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية"[3].

ويقول هنري دي شامبون مدير مجلة "ريفي بارلمنتير" الفرنسية: لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام، ولنجت من وصمة محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون، ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك فنحن مدينون

---

(1) المرجع السابق : ص 81.

(2) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ترجمة عادل زعيتر، ط 3، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، 1965، ص: 344.

(3) المرجع السابق : حاشية من صفحة 128.

للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، ومدعوون لأن نعترف بأنهم كانوا مثال الكمال البشري في الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية[1].

فقد اعترف هذا المستشرق بقسوة المسيحيين الذين مارسوا أبشع أنواع الجرائم ضد الإنسانية فيما سمي عندهم بمحاكم التفتيش، التي كانت سيفا مسلطا على رقابهم، ثم أقر بالفضل للحضارة العلمية والأخلاقية للمسلمين، وأقر بأن انتصار شارل على المسلمين سلبهم حريتهم، ووقعوا ثانية تحت محاكم التفتيش، وتأخرهم عن ركب الأمم في الحضارة والرقي.

وكانت سماحة الإسلام سببا في إسلام الشاعر الأمريكي رونالد ركويل فقال بعد أن أشهر إسلامه: "لقد راعني حقا تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه، سماحة في السلم، وسماحة في الحرب، والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كل وصاياه "[2].

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام، أو عميت بصيرته عنه، أو كان به لوثة من هوى أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق، وسعى إلى بلوغه، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

- ويقول الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا: "إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة".
- ويقول المستشرق بول دي ركلا: "يكفي الإسلام فخراً أنه لا يقر مطلقاً قاعدة (لا سلام خارج الكنيسة) التي يتبجح بها كثير من الناس، والإسلام هو الدين الوحيد الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفجور"[3].

(1) صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، ط 15، 1418هـ، ص 420.
(2) معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: إدوارغالي الدهبي، مكتبة غريب، مصر، ط 1، 1993م ص 49.
(3) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي – دار السلام – القاهرة ط 1، 1418 : 1998، ص 71.

- ويقول العلامة الكونت هنري دي كاستري: "درست تاريخ النصارى في بلاد الإسلام، فخرجت بحقيقة مشرقة هي أن معاملة المسلمين للنصارى تدل على لطف في المعاشرة، وهذا إحساس لم يُؤثر عن غير المسلمين.. فلا نعرف في الإسلام مجامع دينية، ولا أحباراً يحترفون السير وراء الجيوش الغازية لإكراه الشعوب على الإيمان".

وقد أقر هذا المستشرق بأن لطف وسماحة الإسلام قي مقابل عنف وقسوة المسيحيين يرجع لأمرين هامين لم يمارسا عند المسلمين:

أولهما: المجامع المسيحية التي كانت وسيلة لرجال الدين ليفعلوا بالنصرانية ما يريدون، فقد تطورت النصرانية من ديانة توحيد إلى ديانة تثليث بسبب هذه المجامع.

ثانيهما: إكراه الناس على الدخول في النصرانية ولو بالحرب ضدهم، واستخدام أبشع صور الغزو، وممن أقر بهذا الأمر المستشرق الفيلسوف جورج برناردشو: "الإسلام هو الدين الذي نجد فيه حسنات الأديان كلها، ولا نجد في الأديان حسناته! ولقد كان الإسلام موضع تقديري السامي دائماً، لأنه الدين الوحيد الذي له ملكة هضم أطوار الحياة المختلفة، والذي يملك القدرة على جذب القلوب عبر العصور، وقد برهن الإسلام من ساعاته الأولى على أنه دين الأجناس جميعاً، إذ ضم سلمان الفارسي وبلالاً الحبشي وصهيباً الرومي فانصهر الجميع في بوتقة واحدة"[1].

ومن أجمل صور التسامح الإسلامي أنه لم يمنع غير المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية التي لا تضر بالمسلمين، ولم يهدموا لهم كنيسة، ولم تفرض عليهم ضرائب باهظة، بل كانت في حدود الطاقة، ويعفى منها الفقراء والمساكين والشيوخ والنساء والأطفال الذين ليس لهم دخل ثابت، وهذه الضريبة تدفع مقابل حماية المسلمين لهم، وتأمينهم من أي اعتداء وضرر يلحق بهم. وفي هذا المعنى قال "ول ديورانت": "لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض

(1)من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي، ص 72.

عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير. ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ، والأَرِقَّاء، والشيوخ، والعَجَزة، والعُمي، والشديدو الفقر، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، أو إن شئت فقل لا يُقبلون فيها، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها 2.5 % من الدخل السنوي، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم"[1].

وقد أفاض ول ديورانت في الحديث عن الحضارة الإسلامية وحب المسيحيين للمسلمين، ومدى التوافق بينهما، وحب الشباب المسيحي للعلوم الإسلامية والقصائد الشعرية العربية، وتهنئة كل منهما للآخر في المناسبات المختلفة[2].

واعترف ترتون بتسامح الحكام المسلمين فقال: (كان سلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصارى واليهود: بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها فاكتنزوا الثروات الضخمة، وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة، كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية)[3].

ويضرب المؤرخ ترتون لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مثلاً في تقليدهم المناصب في الدولة الإسلامية، فلم يحتكر المسلمون المناصب وحدهم، بل كان لغيرهم النصيب منها فيقول: (يمكن اتخاذ إبراهيم بن هلال مثالاً لما قد يصير إليه الذمي من بلوغ أرفع المناصب في الدولة، فقد تقلد إبراهيم الأعمال الجليلة، فامتدحه الشعراء،

(1) قصة الحضارة: وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت: تقديم: محيي الدّين صَابر ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين: دار الجيل، بيروت–لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس عام النشر: 1408هـ، 1988م، ج13، ص130، 131.
(2) يراجع لمن أراد الاطلاع والاستزادة إلى الصفحات التالية : 133 وما بعدها من الجزء 13. من قصة الحضارة.
(3) أهل الذمة في الإسلام ص 256.

وعرض عليه عز الدولة باختيار بن معز الدولة البويهي أن يوليه الوزارة إن أسلم فامتنع، وكان إبراهيم بن هلال حسن العشرة مع المسلمين عفيفًا في مذهبه، وكان بينه وبين الصاحب إسماعيل بن عباد، والشريف الرضي، مراسلات ومواصلات رغم اختلاف الملل، وكان إبراهيم حافظًا للقرآن)[1].

ويقول هنري دي شامبون مدير مجلة "ريفي بارلمنتير": لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام ولنجت من وصمة محاكم التفتيش ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك فنحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة مدعوون لأن نعترف بأنهم كانوا مثال الكمال البشري في الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية[2].

ويقول المستشرق دوزي: "إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة"[3].

وهذا هو الذي يدعو إليه الإسلام، الدعوة بالقدوة قبل الدعوة بالمحاضرات والخطب والدروس وهذا ليس تقليلا من شأنها لكن من باب العمل قبل القول، وصدق من قال: عمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل، وهذا هو الذي أدى إلى دخول الكثير من الناس قديماً وحديثاً في الإسلام بعد رؤيته القدوة الحسنة في شخص النبي ﷺ أولاً ثم في الصحابة والدعاة الصالحين من بعدهم، فلم نجد ظلماً ولا غدراً ولا خيانة ولا كذباً.

---

(1) وفيات الأعيان : ابن خلكان : جـ 3 ص 256.

(2) صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، ط 15، 1418هـ، ص 420.

(3) انظر: تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، دار العلوم، الرياض، ط1، 1403 هـ، ص 70 نقلا عن: نظرات في تاريخ الإسلام، دوزي، ص 411.

ويقول بول فندلي وهو عضو سابق في الكونجرس الأمريكي: على المسلمين الإعلان جهرا عن هويتهم الإسلامية والبحث عن وسائل تمكنهم من عرض حقيقة دينهم على غير المسلمين.. ولا يجدر بهم انتظار حدوث أزمة كي يعلموا الآخرين بحقيقة دينهم. لا بد للمسلمين أن يجاهروا بإسلامهم مجاهرة يكون سلوكهم الحسن معها وإنجازاتهم المجدية سبيلا للتعرف على الإسلام[1].

فهذه دعوة من هذا المستشرق الذي يدعو إلى افتخار المسلم بدينه، والغيرة عليه، وعدم التخلي عن مبادئه، بدل أن يستحي من الجهر به وسط المجتمعات غير المسلمة التي تفتخر بمنهجها غير السوي، وتدافع عنه بالباطل.

وسماحة الإسلام لم تتوقف على جانب السلم فقط، بل تجلت في أحلى صورها وتعدت إلى جانب الجهاد في سبيل الله، والمعارك التي دارت بين المسلمين وغيرهم، فلا ظلم لمن لم يحمل السلاح من الشيوخ والأطفال والنساء، وهذا منهج الإسلام الذي لا يتوقف على مرحلة بعينها، وهذه مقارنة بين منهج الإسلام في التعامل مع الأخر، ودعوة منظمات المجتمع المدني وحقوق الإسلام التي ملأت الدنيا بالشعارات الجوفاء التي لا تساوى ثمن المداد الذي كتبت به، إن هذه المنظمات تحافظ على حقوق غير المسلمين، أما المسلمون فلا حرج في تجويعهم، وتشريدهم، وقتل أطفالهم، وترميل نسائهم، وتيتيم أطفالهم، والشاهد على ذلك ما يعانيه الأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال الإسرائيلي، ولا أحد يراعي إنسانيتهم، مع أنهم احتلوا أرضاً ليس لهم حق فيها، حتى أصبحوا كالسيد الذي يتحكم في عبده، وهذا كان سبباً في إسلام الشاعر الأمريكي رونالد ركويل فقال بعد أن أشهر إسلامه: "لقد راعني حقا تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه سماحة في السلم وسماحة في الحرب والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كل وصاياه"[2].

(1)تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، ص 344، بتصرف.

(2) معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، إدوار غالي الدهبي، مكتبة غريب، مصر، ط 1، 1993م ص: 49.

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام أو عميت بصيرته عنه أو كان به لوثة من هوى أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق وسعى إلى بلوغه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ويقول مارسيل بوازار: فتح الإسلام للتعايش على الصعيد الاجتماعي والعرقي حين اعترف بصدق الرسالات الإلهية المنزلة من قبل على بعض الشعوب، لكنه بدا أنه يرفض الحوار في الوقت ذاته على الصعيد اللاهوتي، حين أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفا مخالفا للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة، وأتاح منطق تعاليمه القوي، وبساطة عقيدته وما يرافقها من تسامح، أتاح كل هذا للشعوب التي فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية نفسها[1].

ثم انتقل من التنظير إلى الواقع العملي في تطبيق مبدأ التسامح مع غير المسلمين في عهد الخليفة الأول لرسول الله ﷺ أبي بكر الصديق، فقال: "منذ بدء الفتح العربي الإسلامي كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحاً من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة، وفي زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعاً ولا عاطفة أصدر أبو بكر الصديق أول خليفة للنبي ﷺ إلى جنوده التعليمات المشهورة المرنة كثيراً التي تختصر الروح الخلقي للقانون الإسلامي[2].

ثم أَنْتَقِل بالقارئ إلى المستشرق جولد تسيهر[3] الذي درس الإسلام، وكانت له جوانب إيجابية في إنصافه له عن واقع عملي، حيث إنه انتقل إلى كثير من البلاد

---

(1) إنسانية الإسلام : مارسيل بوازار: ترجمة عفيف دمشقية . دار الآداب – بيروت – ص 184.

(2) السابق ص : 278.

(3) جولد تسيهر (1266–1340هـ = 1850–1921م مستشرق مجري موسويّ يلفظ اسمه بالألمانية اجناتس. تعلم في بودابست وبرلين وليبسيك. ورحل إلى سورية سنة 1873م، فتعرف بالشيخ طاهر الجزائري وصحبه مدة. وانتقل إلى فلسطين، فمصر، حيث لازم بعض علماء الأزهر. وعين أستاذا في جامعة بودابست (عاصمة المجر) وتوفي بها. له تصانيف باللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية، في الإسلام والفقه الإسلامي والأدب العربيّ، ترجم بعضها إلى العربية. ونشرت مدرسة اللغات الشرقية بباريس كتابا بالفرنسية في مؤلفاته وآثاره. ومما نشره بالعربية (ديوان الحطيئة) وجزء كبير من كتاب (فضائح الباطنية) المعروف بالمستظهري، للغزالي. وترجم إلى الألمانية كتاب (توجيه النظر إلى علم الأثر) لطاهر الجزائري، وكتاب (المعمرين)

الإسلامية كمصر والجزائر وفلسطين، ودرس في جامعاتها العلمية، ودون مؤلفات عدة اختلط فيها الإجحاف بالإنصاف، ومن أهم ما قال: "إنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التي وضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهي كانت قائمة على روح التسامح وعدم التعصب، وأن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحا دينيا في علاقات الحكومات الإسلامية، ونجد ظواهر هذا التشريع في الإسلام في كتب الرحالة في القرن الثامن عشر، يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع من مبادئ الحرية الدينية التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية[1].

ثم استدل على التسامح الإسلامي بما ورد في القران الكريم من آيات تحث علي العقيدة وعدم إكراه احد على الدخول في الإسلام، ثم وصايا النبي ﷺ لرسله الذين يرسلهم لدعوة غيرهم إلى الإسلام في بلاد غير مسلمة بهذا التسامح في معاملاتهم، وكذلك ما فعله النبي ﷺ مع نصارى نجران حيث جادلهم في أمر المسيح عليه السلام ولكنه لم يكرههم علي اعتناق الإسلام فقال: "روح التسامح في الإسلام قديماً، تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضاً، كان لها أصلها في القرآن: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، وقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمثل التسامح الديني للخلفاء، إزاء أهل الأديان القديمة، وكثيراً ما كانوا يوصون في وصاياهم للفاتحين بالتعاليم الحكيمة، ومن المثل لذلك عهد النبي مع نصارى نجران، الذي حوى احترام منشآت النصارى، ثم هذه القواعد التي أعطاها لمعاذ بن جبل عند ذهابه إلى أهل اليمن لا يزعج يهودي في يهوديته، وفي هذه الدائرة العالية التي اندمجت

للسجستاني ، وغيرهما . الأعلام : خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي : دار العلم للملايين ط: 15 – 2002 م ج 1 ص 84.

(1) العقيدة والشريعة: دار الكتاب المصري ط 1 – 1946 ص: 38.

(2) سورة البقرة الآية: 256.

في الإسلام وبموجبها كانوا – في مقابل دفع الجزية – يستطيعون مباشرة شؤونهم الدينية من غير إزعاج لهم[1].

وكما أن مبدأ التسامح كان جاريا في الأعمال الدينية، كذلك من جهة أخرى كان يراعي فقهياً، فيما يتعلق بالمعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الكتاب، مبدأ الرعاية والتساهل، فظلم أهل الذمة وهم أولئك المحتمون بحمى الإسلام من غير المسلمين، كان يحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة، ففي بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة عندما ثار ضد ظلم أحد عمال الضرائب فحكم عليه بما قاله الرسول عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2][3].

جابر بيلي:

أما هذه الشهادة من المستشرقين المنصفين للإسلام فهي من المستشرق الايطالي المعاصر، والعالم البارز جابر بيلي، 1904 – 1996م وهو كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها في جامعة روما، والمبرز في دراسة الشعر العربي على مر تاريخه، وفي تحقيق نصوص التاريخ الإسلامي، وفي الدراسة الإسلامية الغربية وتاريخها، والفرق الإسلامية، ومقارنة النصرانية بالإسلام[4].

وهو في شهادته هذه يقارن بين سماحة الإسلام وتعصب النصرانية، ويؤكد على تحول سماحة الإسلام إلى واقع معاش، وليس مجرد فكر نظري.

ومن أهم ما قاله: إن الإسلام أضفى على عقائد أهل الكتاب مكانة خاصة يحميها الشرع، وإن لم تكن ذات مرتبة عليا في الدولة، ولم يدم التزمت والاضطهاد فترات طويلة

---

(1)العقيدة والشريعة، ص: 37-38.

(2) سنن أبي داوود أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد : المكتبة العصرية، صيدا – بيروت باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات ح : 3052 .ج 3 ص : 170.

(3) العقيدة والشريعة ص: 46.

(4) الإسلام في عيون غربية : محمد عمارة : ص : 207.

إلا في أوقات الشدة وعدم الشعور بالأمان، أما قانون المسيحية فليس فيه أي مكان لأي دين آخر، لذا فقد انتقل بسرعة وبتطور منطقي إلى التعصب والاضطهاد عندما انتصر على الإسلام[1].

لقد انتشر دين بلاد العرب الذي جلبه الفاتحون معهم في شبه الجزيرة العربية بسرعة، كما حدث في جميع البلاد التي فتحها العرب، وأصبح هو السائد بسرعة بين سكان البلاد الأصليين الذين اعتنقوه، إلى جانب عقائد أهل الكتاب التي أصبح لها أعيادها الدينية والثقافية وطقوسها الخاصة وكتابها وقديسوها، ورغم أن مكانته كانت دون الإسلام فقد كان لها وضع قانوني كامل[2].

ثم تأتي شهادة الكونت هنرى الذي يقارن فيها بين منهج أبي بكر الصديق رضي الله عنه في معاملة مخالفيه وبين ما جاء في الزبور فقال: "ويحسن هنا أن نقابل بين تعاليم أبى بكر في حروب الردة، وتعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بمعاملة الكلدانيين". قال: "إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان. فإن قبلته فقد سلم كل من فيها، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها. ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام". ولاحظ "الكونت" أن المسلمين فرقوا لأول يوم من قيام أمرهم بين عباد الأصنام وبين اليهود والنصارى، ورسموا لكل منهما معاملة خاصة. كما قرر أن الدولة الرومانية أساءت السيرة داخل حدودها وخارجها. فكان المسلمون أجدر بسيادة العالم منها[3].

ثم بين حقيقة معاملة المسلمين للنصارى وأنها تدل على لطف وعطف وشفقة المسلمين في التعامل لهم فقال: ولقد درست تاريخ النصارى في بلاد الإسلام فخرجت منه بحقيقة مشرقة. هي أن معاملة المسلمين للنصارى تدل على لطف في المعاشرة وترُّفع عن الغلظة، وعلى حسن مسايرة ورقة مجاملة.. وهذا إحساس لم يؤثر عن غير المسلمين. فإن الشفقة والحنان كانا يعتبران . لدى الأوروبيين . عنوانا على الضعف. وهذه ملاحظة

(1) الإسلام في عالم البحر المتوسط : جابر بيل : القسم الأول ص : 143.
(2) المصدر السابق ص 116.
(3) التعصب بين المسيحية و الإسلام: محمد الغزالي: دار نهضة مصر، الطبعة الثانية: 2000م. ص: 182-183.

لا أرى وجها للطعن فيها. ولا يفوتني أن أذكر حادثا عرض للكنيسة الأندلسية سنة 851م، فقد تخيل رجالها أنهم مضطهدون!. على حين كان المسيحيون عامة يقيمون شعائر دينهم في " قرطبة" ولا يشكون من حكم الإسلام شيئا[1].

ثم نفي الكونت المنصف العنف عن الإسلام بل يجعل حسن معاملة المسلمين لغيرهم كانت السبب في انتصار العدو عليهم لأن المسلمين لا يعرفون الخبث ولا الدهاء فقال: "إن الإسلام لم ينتشر بالعنف والقوة كما يزعم المغرضون. بل الأقرب إلى الصواب أن يقال: إن مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا السبب في سقوط دولتهم"[2].

فهذه الشهادات وغيرها الكثير مما تفوه به غير المسلمين يدل علي أن الإسلام هو الشريعة التي تسامحت مع غير المسلمين ما داموا لا يرفعون السلاح علي المسلمين.

ولم تقف شهادة غير المسلمين علي سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين عند الرجال فقط بل امتدت إلي الجنس الأخر وهن النساء، حيث اعترفت إحدى المستشرقات بسماحة الإسلام، وأنهم لم يكرهوا أحدا علي الدخول في الإسلام، كما فعل أصحاب الديانات الأخرى، منهن المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه حيث قالت: "العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم، وأديرتهم، وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ، وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود؟ إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت

(1) التعصب بين المسيحية و الإسلام: محمد الغزالي، ص: 188.
(2) المصدر السابق: 191.

المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك **القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف"**[1].

وقد نفت هذه المستشرقة الإكراه عن المسلمين، حتى لا يفتري أحد ويقول إن المسلمين يفرضون دينهم بالقوة علي غير المسلمين، فقالت: "لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، فلم يفرض العرب على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فبدون أي إجبار على انتحال الدين الجديد اختفى معتنقو المسيحية اختفاء الجليد، إذ تشرق الشمس عليه بدفئها! وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف الناس حتى من بقي على دينه، إلى السادة الفاتحين"[2].

وبعد فهذه بعض من شهادات غير المسلمين ناطقة بالحق الصراح الذي لا يحتمل تأويلا ولا تبديلاً، ولم تقتصر علي عصر معين، بل ضمت كل عصور المسلمين، ولم تقتصر علي جنس معين، بل شملت الرجال والنساء، ولم يجبروا علي الاعتراف بهذا الحق، بل الأمانة العلمية تتطلب منهم ذلك، ومما يحزن القلب أن الغرب لا يريد أن تصل الحقيقة إلي الغرب، حتى لا يدخل الإسلام، ولكن الله غالب علي؟ أمره، وسوف يعم الإسلام جميع الأرض، وهذه سنة الله في الأرض.

المبحث الثاني:

ما يتعلق بشخص النبي ﷺ

من أهم الجوانب التي تناولتها نصوص المستشرقين المنصفة ما يخص شخص النبي ﷺ، سواء من ناحية شخصيته ذاتها، أم من جانب أخلاقه التي أبهرت العالم قديماً وحديثاً، وجعلت غير المسلمين يضعون عنده الأمانات؛ لما علموا من حسن خلقه، فقد سمي عندهم بالصادق الأمين، أم من جانب الرسالة التي كلف بها من الله عز وجل، وانتشرت في ربوع الأرض، ولا تزال باقية إلى اليوم دون تحريف أو تبديل، وهذه

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار صادر، بيروت ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط: 10، 1423هـ ص: 364.

(2) المرجع السابق ص: 364-368.

الشهادات ليست من بلد بعينها، وفئة مخصوصة، أو جيل واحد، بل تعددت وتنوعت فشملت كل من سكن المعمورة ليقول للمسلمين وغير المسلمين إن الحق أبلج ولا ينكر رؤيته إلا من في عينيه رمد، وأول هذه الشهادات للمستشرق هـ. ج. ويلز الذي وصل إلى الحقيقة من أخصر طريق، فأوجز الإنصاف في كلمات قليلة لكنها تحمل معاني كثيرة معبرة، فقد ركز على إيمان أقرب الناس بالنبي ﷺ؛ لأن الكذاب ربما يصدقه أبعد الناس منه، والذين لم يعاشروه، لكن عندما يقبل على هذا الدين هذا الكم الزاخر من العرب بكل فئاتهم وبطونهم كأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف سادات قريش، ثم يؤمن به سلمان الفارسي الذي ترك دين قومه وظل يبحث عن الحق عشرين عاماً حتى تحقق له ما يريد، ووجد بغيته في الإسلام، وصهيب الرومي الذي ترك قومه وجاء إلى رسول الله ﷺ، ثم ترك المال لقريش وقت الهجرة غير مبال به، ثم انتقلت هذه الرسالة لتشمل العالم كله من أقصاه إلي أقصاه وفي كل يوم يقبل على الإسلام العلماء والأثرياء وعلية القوم وأصحاب الجاه والسلطان ليس من دعوة المسلمين لهم لكن من اطلاعهم على تعاليم الإسلام، وأخلاق سيد الأنام ﷺ، وكم قرأنا وسمعنا عن قساوسة ورهبان في كل عصر ومصر تركوا دين قومهم واعتنقوا الإسلام رغبة منهم؛ لأنه الدين الحق، وما سواه باطل: فقال هـ.ج ويلز: "إن من أدمغ الأدلة على صدق مُحَمَّد كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به، فقد كانوا مطلعين على أسراره، ولو شكوا في صدقه لما آمنوا له"[1].

ثم يأتي الفيلسوف كارليل في كتاب الرسالة المحَمَّدية لينفي الكذب عن رسول الله ﷺ؛ لأن الكذاب لا يقيم دولة ولا ديناً ينتشر أتباعه في شتى بقاع الأرض، ولو خدع الناس مرة ما استطاع أن يخدعهم أخرى، ولو خدع فئة ما استطاع أن يخدع غيرها، ثم أثنى على رسالة النبي ﷺ التي لا تصدر إلا عن عالم الغيب؛ لأنها رسالة حق فقال: هل رأيتم معشر الناس أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟ عجب والله، إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب، وعلى ذلك فلسنا نعد مُحَمَّداً

(1) موقع نبي الإسلام على شبكة الإنترنت العالمية.

قط رجلاً كاذباً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، أو يطمح إلى درجة ملك، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أداها إلا حق صريح، وما كانت كلمته إلا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول – يعني الغيب – كلا! ما مُحَمَّد بالكاذب ولا بالملفق، وإنما هو قطعة من الحياة، قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله"[1].

والإنسان الذي يتلقى العلم عن غيره ربما يعرف أموراً لا يعرفها غيره، لكن المعجزة من يعيش طوال حياته لا يقرأ ولا يكتب، ويأتي لقومه بما لم يستطيعوا أن يأتوا به وتنبأ عن أمورٍ ستحدث بعد عشرات السنين بل ربما المئات، وهذا دليل على صدق النبي ﷺ في دعواه، وهذا ما اعترف به كارليل حيث قال: "ثم علينا أن لا ننسى شيئاً آخر، وهو أن مُحَمَّداً – ﷺ– لم يتلق دروساً عن أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن مُحَمَّداً لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلمه هو عيشة الصحراء وأحوالها، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينه، ويتلقى بفؤاده من هذا الكون عديم النهاية، وعجيب والله أمية مُحَمَّد! نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه، أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل، وإخلاص وحكمة، لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته، وكشف ظلمته، وأبان حجته، واستنار دفينته، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا![2].

ثم نفى الطمع عن النبي ﷺ وحب الرياسة كغيره من ملكوك الدنيا ككسرى وقيصر وغيرهما الذين كانت لهم سلطة وقوة أرهبوا بها العالم كله، وأقاموا ملكهم علي الإكراه، والجرائم البشعة، ولو كان النبي يريد مالاً لكان من أثرياء مكة، ولو يريد منصباً لصار سيد قومه، لكنه فاز بالسيادة والريادة وحب الناس له، واتباعهم إياه لما رأوا من

(1) موقع نبي الإسلام.
(2) المرجع السابق.

زهده وعدم الطمع والتكالب على الأموال التي كانت تعطى له هدية من كل مكان، ولم يركن إلى الراحة بل اشتغل برعي الغنم والتجارة ليعلي من قدر نفسه ولا يعيش عالة على أموال المسلمين فقال: "أيزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام مُحَمَّداً وأثاره؟ وهذا الزعم حماقة – وأيم الله – وسخافة وهوس! أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع أموال بلاد العرب، وفي تاج قيصر، وصولجان كسرى، وجميع ما في الأرض من تيجان وصوالج ؟ وأين تعبير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ أفي مشيخة مكة، وقضيب مفضفض الطرف، أو في ملك كسرى؟ كلا! إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل: "إن مُحَمَّداً كاذب"، ونعد مواقفهم عاراً وسُبَّةً، وسخافةً وحُمقاً، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع"[1].

هذا ما كان من مواقف أولئك الرجال من أبناء الغرب المسيحي في ذلك التاريخ أي قبل قرنين.

أما في قرننا هذا القرن الحادي والعشرين فقد ازدادت الحقيقة وضوحاً، وزاد الحق ظهوراً؛ وذلك بفضل تقدم العلم والنهضة الثقافية، ومزيد الحرية في الأفكار ولاسيما في العقيدة بشأن دين من الأديان، أو مبدأ من المبادئ، ذلك لأن مُحَمَّداً ﷺ صادق في دعوته، أمين في تبليغ رسالته، وأن دينه دين حق، كلما بحث الباحثون، وناقشوا حوله، وحققوا في تعاليمه يزداد ظهوراً، فيزيد أتباعه والمؤيدون له، والمنصفون بحقه. ومن أبرز هؤلاء الذين أنصفوا النبي ﷺ الكاتب الإنجليزي المعروف برناردشو الذي حقق رسالة مُحَمَّد ﷺ، وحقق دينه، ودرس مبادئه دراسة محايدة حرة، لا ينزع إلا نحو الحق، وعاش في هذا القرن، والذي تحدث عن واقع المجتمعات الغربية التي اتخذت العلمانية والاشتراكية والشيوعية شعاراً لها فعلمت زيفها وبطلانها فأقبلت على تطبيق تعاليم الإسلام وإن لم تدن به؛ لأنها وجدت فيها الرقي والحضارة والتقدم، ليس هذا فحسب بل هناك بشريات كثيرة تبشر بإقبال العالم الغربي على الإسلام؛ لأنه مل من النظم الوضعية، ووجد في الإسلام بغيته، ومن أجل ذلك يطالعنا الإعلام بوسائله

(1) موقع نبي الإسلام.

المختلفة بالحديث عن إسلام الكبار من الرجال والعلماء وقادة الغرب، وتركهم السلطة والمال والجاه والسلطان؛ لحبهم لهذا الدين. فقال برناردشو: "إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة مُحَمَّد ﷺ، وبدأت تعشق دينه، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى، وسيكون دين مُحَمَّد هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة، ويستند على فلسفته في حل المعضلات، وفك المشكلات والعقد"، ثم قال: "وإن كثيرين من مواطني ومن الأوروبيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، وكذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول: إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة!"[1].

ولقد أدرك هذا المستشرق قيادة النبي ﷺ الرشيدة التي جمعت المتفرق قديما وحديثاً، واستبدلت المحاسن بالمساوئ، والعيوب بالمزايا، فاقر بأن العالم اليوم بما يلاحقه من أحداث جسام، ومشاكل عظام لا يستطيع أحد أن يحلها إلا أن يتسلم النبي ﷺ قيادة البلاد فهنا تحل كل هذه المعضلات، وتتحقق السعادة للمجتمع كله فقال: "وأعتقد أن رجلاً كمُحَمَّد لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه اليوم لتم النجاح في حكمه، ولقاد العالم إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة"[2].

أما البروفيسور عبد المسيح الأنطاكي المسيحي: فقد سرد للقارئ تاريخ دعوة النبي ﷺ بكل حيادية وإنصاف، فبين أن المسلمين ما قاتلوا غيرهم إلا دفاعا عن أنفسهم ضد اعتداء قريش ومن تبعها من غير المسلمين، غير منتقمين ممن لم يعتدي عليهم، ثم سرد الآيات القرآنية التي تتحدث عن الجهاد في سبيل الله والدفاع عن النفس وقتال المعتدين. فقال ما نصُّهُ: "إن المصطفى مُحَمَّداً – ﷺ – تدرج في دعوته، حيث ابتدأ بإعلان دعوته مسالماً، ثم أوجد الله له في الأوس والخزرج أنصاراً بالمدينة، فهاجر من مكة إليهم بأصحابه تخلصاً من أذى قريش، فأبى القرشيون إلا أن يعملوا

(1) موقع نبي الإسلام.
(2) المرجع السابق.

على النكاية بهم، فأرسلوا أولاً من يتبع خطواته وهو فار إلى المدينة من ظلمهم ليعيدوه إلى مكة فيسجنوه أو يقتلوه، ولما فشلوا في هذه الرغبة أخذوا يجمعون كلمة العرب على قتاله، حينئذ أذن الله له ولأصحابه وأنصاره بمقاتلة المشركين لسببين:

أولهما: الدفاع عن النفس بإزاء المعتدين.

وثانيهما: الدفاع عن الدعوة بإزاء الذين تعرضوا لها، فقد كانوا يفتنون المهتدين – يعني الذين آمنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ بالاضطهاد والتعذيب، ويصدون الآخرين عن الهدى عنوة، ويقومون بمحاولة منع الداعي عن تبليغ دعوته بالسخرية به وغيرها، ثم بمحاولة قتله.

أما أمر الله بالقتال فقد جاء في مواضع شتى من القرآن منها قول الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1].

وأنت ترى في هذه الآية الكريمة أن سبب إذن الله للمسلمين بالقتال هو ظلم المشركين لهم، وما ذنبهم إلا قولهم "ربنا الله"، فأخرجوا من ديارهم لهذا الاعتقاد – اعتقاد التوحيد –.

ومضى البروفيسور يقول: "وجاء في القرآن أيضاً في سبيل القتال قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

(1) سورة الحج : 39-41.

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] وأنت ترى في هذه الآيات الكريمة ما يخلق ويجدر أن يصدر عن الإله الواحد، العادل المؤدب، القهار الرحيم، وذلك لجمعها بين الدفاع عن النفس، وتأديب المعتدين، وإبطال الفتنة، والانتصار لدين الله، وفي القرآن أشباه لهذه الآيات الكريمة العادلة التي أنزلت على مُحَمَّد بن عبد الله لعزة الدين، وردع الظالمين المعتدين"[2].

وفي الختام قال البروفيسور مقرراً القاعدة التي أرساها الإسلام في معاملة غير المسلمين في حالتي السلم والحرب فلا عدوان إلا باعتداء على المسلمين، وإن كان غير ذلك فهناك المودة والرحمة والعدل فقال: "لا جرم أن الإسلام كان ولا يزال مسالماً من سالم أهله إذ قال الله سبحانه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3]، وفي هذه الآيات الكريمة تتجلى روح الإسلام العادلة بأجل تجليها لدى المنصفين"[4].

وانتصار القائد في أي معركة على أعدائه تجعله يفتخر بنفسه ويعلو على غيره وينتقم منهم حيث إن الفرصة مواتية له، فيقتل الصغير والكبير والقوي والضعيف والطفل والمرأة لا يراعي الجوانب الإنسانية كما يحدث الآن في الأراضي الإسلامية المحتلة، ولكن النبي ﷺ أعطى المثل الأعلى لكل قائد ينتصر على نفسه في معاملة الفئة المنهزمة، وهذا ما جلاه المستشرق أميل دير مانجم في كتابه حياة مُحَمَّد حيث قال: "إن مُحَمَّدا رسول الإسلام – ﷺ– قد أبدى في أغلب حياته – بل في طول حياته – اعتدالاً لافتاً للنظر، فقد برهن في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قلَّ أن يُوجد لها مثيل في التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين، والأطفال والنساء،

(1) سورة البقرة :190- 194.
(2) موقع نبي الإسلام.
(3) سورة الممتحنة :آيتا: 9/8.
(4) موقع نبي الإسلام.

وحذرهم أن يهدموا البيوت، أو أن يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم أن لا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة، بل قد سمعناه يؤنب بعض قواده، ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً"[1].

وعندما نطبق هذا النص على ما فُعل في بلاد المسلمين التي قامت لتقاوم الظلم والاستبداد والعدوان الغاشم الذي حل بها من قبل حكامها الذين أفسدوا بلادهم قوبلت بأشد أنواع الظلم والإيذاء، فرأينا سيلان الدماء واغتصاب النساء وقتل الأطفال، وليس هذا فحسب بل قضوا على مقدرات وخيرات البلاد؛ حتى يتركوها خاوية على عروشها، وتنتقل من الغنى إلى الفقر.

وفي حالة استيلاء كثير من القادة على الغنائم ممن انتصروا عليه فربما ادخر القائد لنفسه، وليس هذا في الحرب فقط بل في أموال الشعب التي تكون تحت سيطرته ولا ينال الشعب منها إلا الفتات، ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، بل انعكست هذه الغنائم على فئتين: أولهما: المجاهدون، وثانيهما: الصدقات على الفقراء والمساكين، ولذلك فقد أنصف دير مانجم النبي ﷺ في هذا الجانب فقال: "إن الغنائم الحربية كانت في ذلك العهد النتيجة العادية لكل جهاد، بل يمكن أن يُقال: إنها كانت مع التجارة، وتربية الحيوان؛ هي الصناعة الوطنية العربية، فأعلن مُحَمَّد رسول الإسلام إباحتها لأتباعه استجابة لضعفهم، ولكنه حددها بقواعد دقيقة، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات، ولحاجات الجيش، كما أنه حظر في قسم الأسرى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم)[2].

وقد نشرت مجلة الصراط المستقيم في بغداد العدد ربيع الأول سنة 1315هـ مقالاً بقلم عربي مسيحي بعنوان رسول الوحدة يقول فيه: "في حياة مُحَمَّد بن عبد الله -ﷺ- أسطع دليل يحمله تاريخ الحضارة إلينا، ويدل على ما للعقيدة الراسخة في قلب المؤمن من قوة تجمع شتات الناس، وتوحد كلمة أخلاطهم (قبائلهم المختلطة)، وتخلق

(1) موقع نبي الإسلام.
(2) المرجع السابق .

من بدو الصحاري ورجال القفار أبطالاً أفذاذاً، لا يقوى على الوقوف في سبيل جهادهم من أجل المبدأ السامي واقف.

فهذا رد على من يقول ويردد في البلاد التي تجمع بين المسلمين وغيرهم بأن هناك ظلما للفئة القليلة، وأنهم مظلومون ومضطهدون، وسلبت حقوقهم، وهناك فتنة طائفية، ويستغلون أي نزاع يقع بين المسلمين والنصارى ليشعلوا نار الفتنة والوقيعة بينهما.

أطل مُحَمَّد الأمين من منافذ الحياة فاقداً أمه وأباه، فشاهد أنقاض حمير، وخراب سبأ وقد شخص عليها اللات والعزى، ورأى قومه غارقين في سبات الجاهلية العميق متفرقين في طرائق، ولم يبق لهم من حضارتهم الدارسة وعزهم الغابر غير (كعبة) يحجون إليها، وشعر حماسي تافه جله ينشدونه في أسواق اختلط فيها حابل الحضر بنابل البدو.

وفي قلب بيئة أظلمت فيها عقول الخاصة، وانحطت فيها أخلاق العامة، رفع النَّبيّ العربي صوته العالي يدعو أمته إلى الوحدة بالتوحيد، وإلى المجد بالجهاد، مستمداً قوته من وحي وإلهام فياض في نفسه الكبيرة، فرفعه فوق الناس، وجعله أعظم زعيم رآه البشر في تاريخ الإصلاح والحرب والسياسة، لا يذكر في جانبه نبي ولا زعيم ولا مصلح آخر.

ثم بينت مجلة الصراط المستقيم ما فعله المشركون برسول الله ﷺ عندما جهر بدعوته فقالت: قال مُحَمَّد – ﷺ– كلمته فسخر قومه من دعوته، وسفهوا نبوته، وناصبوه العداء؛ حتى ألجأوه إلى الهجرة من وطنه، فهرب من مكة متوجهاً إلى المدينة مع صديقه أبي بكر الصديق، ولما تسرب اليأس إلى قلب رفيقه في السفر أوصاه أن لا يحزن لأن الله معهما، وحقاً إن الله كان معه، كان في قلبه مبعث إيمانه الراسخ بمبدأه القويم مبدأ توحيد أمته في اعتقادها وفي مسعاها.

لقد وقف فتى قريش يومئذ فريقاً وحده، لا نصير له غير الله الواحد، ولا عون له غير قوة إيمانه، ووقف العالم برمته بعربه وأعرابه وعجمه فريقاً ثانياً عليه، ابن عبد الله

صف واحد، والجزيرة العربية والأمبراطورية الرومانية والفارسية في صف آخر متألبة عليه."

ويتضح مما سبق إنَّ رسولَ الإسلامِ مُحَمَّداً ﷺ لم يُبعث إلى قومِهِ العرب فحسب، بل بُعث إلى شعوب العالم عامة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]، ولهذا فإن الله العليم الحكيم الذي أرسله قد أعده قبل أن يرسله لتحمل هذه الرسالة العالمية بالصفات العظيمة التي تتطلبها رسالته من كثرة الذكاء، وشدة التدين والتقوى، وعظمة الرأفة وغيرها، وقد وصفه الله ربه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾[2]، وقد أنصف بارتلمي فاعترف بما هو الحق الذي لا يجوز إنكاره بقوله الأخير: "ونعد دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته" لأن بعثته بهذا الدين كانت في الحقيقة رحمة لجميع العالم، وقد قال الله – عَزَّ وجَلَّ – في وصف هذه البعثة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3] والحمدُ للهِ على ذلكَ أولاً وآخراً.

وهذا ول ديورانت في حديثه المفصل عن النبي ﷺ تناول حياته منذ نعومة أظفاره، وبيئته الطاهرة، واسمه الزكي، وأنه استطاع أن يخوض غمار أكثر من خمس وستين معركة بين غزوة وسرية قاد بعضها بنفسه، وولى الصحابة على البعض الأُخر، واعترف بأن شخصية النبي ﷺ ذات قيادة رشيدة استطاعت أن ترفع المستوى الروحي والأخلاقي والاجتماعي في مجتمع ربما سادته الغلظة والقسوة والجفوة لظروف عيشته في الصحراء، وأسس النبي ﷺ مجتمعاً متكامل الجوانب الأركان لا تنقصه عوامل الحضارة التي مكنته أن تجوب دولته ما يقارب من نصف العالم في حياته، ثم النصف الثاني قبل أن يكتمل القرن الأول الهجري على يد المجاهدين الفاتحين من الصحابة والتجار العرب. فقال: وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن

(1) سورة سبأ الآية :28.
(2) سورة القلم الآية : 4.
(3) سورة الأنبياء الآية : 107.

محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم، وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لمّا بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، ديناً سهلاً واضحاً قوياً، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم[1].

ثم أثنى على دعوة النبي ﷺ التي لم تترك الحديث المفصل عن العلم الذي به ترتقي الأمم وتقام الحضارات، وتؤسس البلاد على حب الاطلاع على ثقافات غيرها من الأمم. فقال: تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب بهِ، فهو من هذهِ الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول ﷺ : "مَن سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله لهُ طريقاً إلى الجنة" ويقول ﷺ: "يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء"[2].

ولقد أدرك جولد تسيهر قيمة الهجرة إلى المدينة المنورة التي من خلالها أسس المجتمع المتكامل سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأُرسي للأمة قواعد الحلال والحرام، وكل ما يهم دنياهم وأخراهم. فقال: "كانت الهجرة إلى المدينة تحولاً كبيراً في سياسة الرسول

(1) قصة الحضارة : ج 13 ص 47.
(2) المرجع السابق ج 13 ص 167.

ﷺ، فقد أصبح مُحَمَّد (بعد الهجرة) مجاهداً وغازياً، ورجل دولة، ومنظم جماعة جديدة أصبحت تتسع وتنمو شيئاً فشيئاً، وعندئذ اتخذ الإسلام شكله النهائي، وعندئذ أظهرت البذور الأولى لنظامه الاجتماعي والفقهي والسياسي"[1]، ثم قارن بين دعوة النبي في مكة والمدينة فقال: "في مكةَ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يدعو إلى تعاليم دينه جماعة صغيرة، أما في المدينة فقد ظهر الإسلام نظاماً له طابع خاص، وله في الوقت نفسه صورة الهيئة المكافحة، وفي المدينة قامت طبول الحرب التي تردد صداها في جميع أزمنة التاريخ، وصار مُحَمَّد ﷺ ينظم أعمالاً حديثة، فأصبح ينظم طرق توزيع الغنائم، وينظم المواريث، ويشرع القوانين، ويضع أسس أمور الدين العلمية، وأهم احتياجات الحياة الاجتماعية، وفي المدينة رسمت الخطوط الرئيسية لحياة الإسلام التاريخية، وبدأ مُحَمَّد ﷺ مع الصحابة –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم– تحقيق حياة مطابقة لما جاء به من دين ومذهب"[2].

وكتبت دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة): "كان مُحَمَّدٌ أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً، ظهر النَّبيُّ مُحَمَّدٌ في وقت كان العرب فيه هووا إلى الحضيض، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة، ولا مبادئ مدنية أو سياسية أو اجتماعية، ولم يكن لهم ما يفاخرون به من الفن أو العلوم، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجي، وكانوا مفككين لا رابط بينهم، كل قبيلة وحدة مستقلة، وكل منها في قتال مع الأخرى، وقد حاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح، ولكن ظهر النَّبيُّ مُحَمَّدٌ الذي أُرسل هدى للعالمين، فاستطاع في سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب، وأن يرفعها من الوثنية المنحطة إلى التوحيد، وحوّل أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والفرقان، فأصبحوا دعاة هدى ورشاد بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد، وانتشروا في الأرض يعملون على رفع كلمة الله[3].

(1) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص: 10-11.
(2) المرجع السابق، الصفحات نفسها.
(3) موقع نبي الإسلام.

ففي هذا النص وصف هذا المستشرق حال المجتمع الذي ولد فيه النبي ﷺ، وما فيه من مساوئ لا تحصى، منها ما يتعلق بالفرد، وما يتعلق بالقبيلة، وما يتعلق بالمجتمع كله، ولكن في فترة وجيزة استطاع النبي أن يحوله من مجتمع مليء بالسلبيات والموبقات والجرائم إلى مجتمع مثالي يسوده الحب، وتعلوه الفضيلة، ويرفرف عليه السلام، وشعاره الإيثار، محققاً العدل والمساواة، يأمن الفرد على نفسه وأولاده، غير خائف من احد، وليس هذا فحسب بل حول هذا المجتمع الذي يرعى أفراده الإبل والغنم إلى مجتمع صاحب قيادة وريادة في مناحي الحياة المختلفة العلمية والاقتصادية والتربوية، ناقلاً حضارته إلى بقاع الأرض، وتحول العبيد إلى سادة، وخضعت أعظم قوتين وقتها وهما الفرس والروم إلى حكم المسلمين، دون إكراه لأحد أو إغراء بالمال أو المنصب.

وإذا قارنا هذا بما فعلته "..الولايات المتحدة الأمريكية.. وقد انتشرت فيها عادة السكر وشرب الخمور انتشاراً أقنع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع، فأصدرت الحكومة قانوناً يمنع الخمر، ثم تبين لها بعد مدة يسيرة أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها، وأن أفراداً وجماعات أخذوا يعيثون في الأرض فساداً بتعاطي الخمور وتهريبها والاتجار بها، والتفنن في صناعتها على استخفاء، واستحضار أخبث أنواعها أكثر من ذي قبل.

فحوالي عام 1918م ثارت المشكلة في الرأي العام الأمريكي. وفى عام 1919م أدخل في الدستور الأمريكي تحت عنوان: (التعديل الثامن عشر) وفى نفس السنة أيد هذا التعديل بأمر حظر، أطلق عليه التاريخ قانون (فولستد)[1].

وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة: جُنّدَ الأسطول كله لمراقبة الشواطئ، منعاً للتهريب جُنّدَ الطيران لمراقبة الجو.شُغلت أجهزة الحكومة واستُخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر وبيان مضارها، وجُنّدَت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها.ويقدرون ما أنفقته الدولة فى الدعاية ضد

(1) الإيمان والحياة : يوسف القرضاوي : ط مكتبة وهبة – مصر ط :12: 1412/ 2001 ص217.

الخمر بما يزيد على (ستين مليوناً) من الدولارات، وأن ما أصدرته من كتب ونشرات يبلغ (عشرة بلايين) صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم – في مدة أربعة عشر عاماً – لا يقل عن مائتين وخمسين مليون دولار، وقد أعدمت في هذه المدة 300 نفس، وسجن 532.335 نفس، وبلغت الغرامات (ستة عشر مليون دولار) وصادرت من الأملاك ما بلغ أربعة وأربعمائة مليون دولار، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر وعناداً في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة 1933م إلى إلغاء هذا القانون، وإباحة الخمر إباحة مطلقة"[1].

وعندما نعقد مقارنة بين تدرج القرآن الكريم وتهيئته النفوس لقبول الحق وترك الباطل وبين ما فعلته أمريكا في تحريم الخمر نجد الفرق واضحاً حيث نتج عن تدرج القرآن انتهاء المسلمين عن شرب الخمر، أما في أمريكا فقد زاد شرب الخمر؛ لأنها لم تراع طبيعة البشر ولم تهيئ النفوس لقبول ما تريده؛ فأدى ذلك إلى رفض الناس كل قانون صدر بشأن تحريم الخمر، وأنفقت الملايين، وأزهقت الأرواح، وصادرت الأموال، وسجنت الناس، وفى النهاية أباحت الخمر إباحة مطلقة، ولكن الإسلام لم يفعل كل ذلك وإنما حرم الخمر بكلمة انتهوا فانتهى جميع المسلمين عن شرب الخمر.

أما منهج النبي ﷺ الذي أوحي إليه فلم يكلف الأمة وقتها ديناراً ولا درهما، ولم يزهق أرواحاً، ولم يؤسس معتقلات من أجل سجن المدمن فيها، بل هيئت النفوس حتى طلبت هي الحسم في هذا الوباء الخطير ، اللهم أنزل لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[2].

وقال السير فلكد الأمريكي: "كان عقلُ مُحَمَّدٍ النَّبيِّ ﷺ من العقول الكبيرة التي قلَّما يجودُ بها الزَّمانُ، فقد كان يدرك الأمر، ويدرك كنهه من مجرد النظرة البسيطة، وكان

(1) الإيمان والحياة : يوسف القرضاوي: ص : 218.
(2) سورة المائدة آيتا : 91/90.

النَّبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ في معاملاته الخاصة على جانب كبير من إيثار العدل، فقد كان يعامل الصديق وغيره، والقريب والبعيد، والغني والفقير، والقوي والضعيف؛ بالمساواة والإنصاف"، ثم قال السير فلكد بعد أن تحدث عن غزوات مُحَمَّد ﷺ وانتصاراته ما ترجمته: "وكل هذه الانتصارات والفتوحات لم توقظ في مُحَمَّد النَّبيّ أي شعور بالعظمة والكبرياء كما يفعل ذلك من كان يتأثر بالأغراض الشخصية، في هذا الوقت الذي وصل فيه إلى غاية القوة والسطوة كان على حالته الأولى في معاملته ومظهره، حتى كان يغضب عندما يرى من أهل المجلس الذي يقدم عليه احتراماً أكثر من العادة، وكانت الثروة تنهال عليه من الغنائم وغيرها ولكنه كان يصرفها على نشر دعوته، ومساعدة الفقراء[1].

لقد كانت هناك مؤهلات للنبي ﷺ دفعت هذا المستشرق أن يقر بهذه الشهادات القليلة المبنى الكثيرة المعنى، ومن أهمها ما يلي:

- العقل الكبير الواعي الذي منحه الله تعالى لنبيه، فقد استطاع أن يستقطب الكثير من الناس دون أن تكون لديه مؤهلات الإغراء الدنيوي، فقد استطاع أن يتعامل مع جميع أنواع الشخصيات والمستويات والطباع والأمزجة، وكان يخاطب كل شخص بما يناسبه، فلا تجد أسلوباً واحداً، في مخاطبة النبي ﷺ لمن يدعوه ويتعامل معه.
- العدل الذي اتصف به النبي بين الناس جميعا، فلم يفضل أبا بكر على بلال في المعاملة، ولم يظلم غير المسلم حباً للمسلم، ولم يدن من الغني ويبعد عن الفقير، بل الكل عنده سواء، حتى لا يتسرب اليأس إلي الفقير من سوء المعاملة، بل ربما فضل البعيد منه في العطية على القريب منه تأليفاً لقلبه.
- غالب عظماء الدنيا يفتخر ويغتر بالنصر الذي يحققه، فلا يفتر عن إقامة حفلات الرقص الماجن تعبيراً عن البهجة والنصر، لكن النصر لم يزد النبي إلا تواضعاً وشكراً لله على النصر.
- عدم الطمع في ثروات الأمة علما بأن الهدايا كانت تأتي إليه من كل حدب وصوب،

(1) موقع نبي الإسلام على شبكة الانترنت العالمية.

فلم يسخرها لنفسه ويستولي عليها هو وأهل بيته كما يفعل جل ولاة أمور المسلمين، بل سخرها في خدمة الدعوة، ومعاونة الفقراء، حتى قال أحد الناس إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة.

وقال بورست سميث: "إني صميم الاعتقاد على أنه سيأتي يومٌ يتفق فيه القومُ وزعماء النصرانية الحقَّة على أنَّ مُحَمَّداً ﷺ نبي، وأن الله – عَزَّ وجَلَّ – قد بعثه حقاً".

وهذا ما تنبأ به النبي ﷺ في كثير ممن بشرياته التي تبشر بإيصال الإسلام إلى ربوع الأرض وإسلام العرب والعجم والقاصي والداني، وجميع أهل الأرض فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها[1].

وأختم هذا المبحث بهذه الشهادة للمستشرق آتيين دينيه فقال: إن الشخصية التي حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة، وكانت ذات أثر عظيم جداً، حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع، وأعطاها صفة الشيء الجديد[2].

إن نبي الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات، وليست عمدته الكبرى إلا بلاغاً التنزيل الحكيم[3].

إن سنة الرسول الغراء باقية إلى يومنا هذا ، يجلوها أعظم إخلاص ديني تفيض به نفوس مئات الملايين من اتباع سنته منتشرين على سطح الكرة[4].

ثم أقر هذا المستشرق بالجانب الحضاري والهدي الظاهري للنبي ﷺ فلم يكن ثائر الشعر واللحية، ولم يلبس من الثياب أبلاها، ولم يقصر في هيئته الظاهرة والباطنة؛ لأن دينه ليس ديناً يهتم بالجانب الروحي ويهمل الجوانب الأخرى فقال: كان النبي ﷺ يعنى بنفسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة،

---

(1) مسلم–كتاب الفتن وأشراط الساعة– باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ح 2889 ج 4 ص 2215 مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

(2) أشعة خاصة بنور الإسلام: ترجمة: فؤاد محمد شبل، سلسلة الثقافة الإسلامية رقم 17: المكتبة الفنية للنشر – بيروت 1960، ص: 15.

(3) المرجع السابق ص : 16.

(4) محمد رسول الله: اتيين دينية: ترجمة: عبدالحليم محمود ط3– الشركة العربية للطباعة والنشر– القاهرة 1959، ص51.

ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر نفسه في المرآة ليمشط أو يسوي طيات عمامته، وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يروق الخالق سبحانه وتعالى[1].

المبحث الثالث:

ما يتصل بالإسلام

إن الإسلام اتهم كثيراً في كتابات المستشرقين الحاقدين في كل زمان ومكان، ووصفوه بأوصاف هو منها براء؛ لأنه يخالف ما هم عليه من ضلال وانحراف عن الحق، ولأنه دين الله الذي لا يدعو الناس إلى ما يضرهم، بل هو الدين الذي ارتضاه الله للعالمين وأتمه عليهم، وجعله نبراساً يستضئ به السائرون في طريقهم للخير والإصلاح، ووجدنا بعض المستشرقين ومن تبعهم من المسلمين الذين تتلمذوا على أيديهم ألصقوا بالإسلام ما لم يكن فيه من جمود، وعدم مسايرته للواقع، وأنه لا يصلح أن نقدمه للناس في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، بل هو صلاة وصيام وزكاة وحج فقط، ولا دخل له بالسياسة والحكم والاقتصاد حتى قال علي عبدالرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم: "لم يبق أمامك – بعد الذي سبق– إلا مذهب واحد، وعسى أن تجده مذهباً واضحاً ... ذلك هو القول: بأن محمدا ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة "دينية" خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة. وأنه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم "سياسة" من هذه الكلمة ومرادفاتها.. ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا، ولا مؤسس دولة، ولا داعيا إلى ملك"[2].

"ترى من هذا أنه ليس "القرآن" هو الذي يمنعنا من اعتقاد أن النبي كان يدعو مع رسالته الدينية إلى دولة سياسية، وليست "السنة" هي وحدها التي تمنعنا من ذلك، ولكن مع الكتاب والسنة، حكم "العقل"، وما يقضي به معنى الرسالة وطبيعتها.. إنما كانت ولاية محمد ﷺ على المؤمنين ولاية الرسالة، غير مشوبة بشيء من

(1) محمد رسول الله: اتيين دينية: ترجمة: عبدالحليم محمود ص: 312.

(2) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي: مكتبة وهبه الطبعة: العاشرة 1991/1411، ص: 212 نقلا عن الإسلام وأصول الحكم: علي عبدالرازق ص: 55.

الحكم"[1].

ولكن الله تعالى قيض للحق رجالاً يدافعون عنه من المسلمين وغير المسلمين، وقد زخرت المكتبة الإسلامية والعربية والأجنبية بآلاف النصوص التي تثبت أن الإسلام دين ودولة، عقيدة وشريعة وأخلاق ومعاملات، وقبل أن أسطر ما كتبه المنصفون أسوق قول الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[2].

فهذه الآية لم تترك مجالاً يتقول فيه الناس عن الإسلام إلا من باب الحقد والحسد وقد أوضح الشيخ حسن البنا هذا الأمر فقال في الأصول العشرين التي من خلالها يفهم المسلم الإسلام بعد القران والسنة في الوقت الذي تتردد فيه هذه الافتراءات. فقال:

1- الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً فهو دولةٌ ووطنٌ أو حكومةٌ وأمةٌ، وهو خلقٌ وقوةٌ أو رحمةٌ وعدالةٌ، وهو ثقافةٌ وقانونٌ أو علمٌ وقضاءٌ، وهو مادةٌ أو كسبٌ وغنى، وهو جهادٌ ودعوةٌ أو جيشٌ وفكرة، كما هو عقيدةٌ صادقةٌ وعبادةٌ صحيحةٌ سواءً بسواءٍ.

وأُصَوِّب القلم على ذكر أقوال المستشرقين وأول هذه الشهادات التي أنصف فيها المستشرقون الإسلام ما قاله شاخت (1969/1902م) وهو من أعلام المستشرقين الألمان، وقد شغل بعد تخرجه كرسي الأستاذية في جامعة فرايبورج، والجامعات المصرية، والجزائر، وهو متخصص في الشريعة الإسلامية[3].

وقد عاش هذا المستشرق عصريين مختلفين مرت بهما الأمةُ الإسلاميةُ، أولهما: عصر الاستعمار الذي ابتليت به الدول الإسلامية بسيطرة الاستعمار الغاشم الذي جثم على صدرها عقوداً من الزمن، وثانيها: عصر الاستقلال الشكلي فقط كانت تلك الدول تحت السيطرة الحقيقية للغرب الذي جند من أبناء وحكام المسلمين من ينفذ له

(1) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي ص 213/212 . نقلاً عن الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرازق ص80.

(2) سورة الأنعام من الآية 38 .

(3) الإسلام في عيون غربية : محمد عمارة ص 179 .

سياسته، وينفذ له مشروعه الذي يسعى لتحقيقه؛ وهو أن تكون الدول الإسلامية منقادة كلية – وبخاصة في الأمور الاجتماعية البعيدة عن أركان الإسلام الخمسة – إلى ثقافة وفكر الغرب ومنهجه الباطل، فابتليت بالشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والقومية، وغيرها من الأمور التي صرفت كثيراً من أتباعه عن تعاليم الإسلام.

ونجد هذا المستشرق يعقد مقارنة بين ما حدث من تنازع في الكنيسة بين رجال الدين والعلماء، وانفصال العلم عن الدين، وجعل رجال الدين هم المشرعين لأقوامهم حتى نشأت العلمانية، – وهي في أبسط معانيها فصل الدين عن الدولة –، وبين الإسلام الذي لم ينشأ فيه هذا النزاع؛ لأن الدين هو الذي ينظم حياة الناس فيما يتعلق بالحاكم والمحكوم، والعالم والجاهل، فقال مادحاً الإسلام: "إن النزاع بين الدين والدولة اتخذ أشكالاً مختلفةً، ففي المسيحية كان هناك صراع من أجل السلطة السياسية من جانب هيئة كنيسة منظمةً تنظيماً تدريجياً ومتماسكاً ينتهي إلى رياسة عليا، وكان القانون الكنسي أحد أسلحتها السياسية.

أما في الإسلام فلم يكن هناك قط ما يشبه كنيسة، فالشريعة الإسلامية لم تستند مطلقاً إلى تأييد قوة منظمة، وعلى ذلك فلم ينشأ قط في الإسلام اختيار حقيقي للقوى بين الدين والدولة، وظل المبدأ القائل بأن الإسلام من حيث هو دين ينبغي أن ينظم الناحية القانونية في حياة المسلمين قائماً لا يتحداه أحدُ[1].

ثم يفرق هذا المستشرق بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، فالشريعة أوامر إلهيةُ صادرةُ من الله –عز وجل – تنظم حياة الناس كلهم لا تفرق بين أمر وآخر، من أدني شيء إلي أعلي شيء في حياة الناس، أما القانون الوضعي فإنه ينفع لمجتمع ولا ينفع لآخر، وربما ناسب عصراً ولا يناسب الآخر لأن كل عصر له خصائصه وسماته، والواضح أن القانون لا يعي تفاصيل كل المجتمعات، كما أنه لا يعرف ما سيحدث في الأزمنةٍ القادمةٍ ليضع قانوناً يناسبها، وفي هذا المعني يقول شاخت: "ومن أهم ما ورثه

(1) تراث الإسلام: ترجمة/ محمد زهير السمهوري – ط: سلسلة عالم المعرفة الكويت: 1978. بحث حول الشريعة الإسلامية: القسم الثالث: ص: 11.

الإسلام للعالم المتحضر قانونه الديني، الذي سمي بالشريعة. والشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً واضحاً عن جميع أشكال القانون، إنها قانون فريد من بابه، إن الشريعة جملة الأوامر الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهي تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية، كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية، وعلى تفاصيل آداب الطهارة، وصور التحية، وآداب الأكل، وعيادة المرضى"[1].

والشريعة الإسلامية هي أبرز ما يميز أسلوب الحياة الإسلامية، وهي لب الإسلام ولبابه، والخاصية التي تجعل التشريع الإسلامي على ما هو عليه، وتضمن وحدته مع كل ما فيه من تنوع، هي نظرة لجميع أفعال البشر، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، بما في ذلك ما نعتبره قانونياً على أساس المفهومات التالية: الواجب، والمندوب، والمتروك، والمكروه، والمحظور، وأدمج القانون بمعناه الدقيق في هذا النظام من الواجبات الدينية إدماجاً تاماً[2].

إبراهيم خليل أحمد:

هذا الرجل الذي من الله عليه بالإسلام بعد مكوثه فترةً طويلةً على النصرانية، وقد تبوأ مناصب عليا في العمل الكنسي، وأفنى عقوداً من عمره في تنصير المسلمين في جنوب أفريقيا، حتى وصل إلى مرحلة إعداده لأطروحة الدكتوراه، وفي تلك الأثناء حانت نقطة التحول إلى الإسلام وأترك المجال له يتحدث عن هذه الفترة حيث قال: "من العجب العجاب أنني في نشوة انتصاراتي بالعمل التبشيري، وفي فترة إعداد نفسي لنيل درجة "دكتوراه في الفسلفة واللاهوت من جامعة برنستون بأمريكا" وفي استعداي وإعدادي للرسالة التي أسميتها "سيف جليات" أردت الهجوم على الإسلام بمهاجمة القرآن الكريم. ويشاء الله أن يقهرني بالقرآن الكريم، ليسمعني صوته بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ

(1) تراث الإسلام: ترجمة/ محمد زهير السمهوري ص: 12.
(2) المصدر السابق ص: 15.

وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[1].

كان لهذه الآيةٍ وقع على نفسي. إذ جعلتني أفكر تفكيراً حراً نزيهاً، وأحسست بأن الله الذي علمني ما لم أعلم، يستطيع أن يجردني من العلم والمعرفة، ويتركني للذل والهوان، لكن إرادته لهاديتي جعلته يفيض عليّ من أنوار هذه الآية، مما أيقظ ذهني وقلبي ووجهي إلى إرادته ومشيئته، والحق أن ما قرره القرآن الكريم هو الصدق اليقيني: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[2]، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[3].

الحمد لله الذي هداني لهذا، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله.

وبرزت أمامي نقاط رئيسية: منها الوحدانية والغفران كما تقررها المسيحية والإسلام، والفضل لأهله يرد، فإن القرآن الكريم قد بسَّط عقيدة الوحدانية تبسيطاً يفهمه العالم والأمي، وهذا لا ريب من سنن الله في عدالته، إن الله ليس كالبشر يأخذ الناس بجرائرهم جرياً على القول المأثور في القوانين الوضعية "إن الجهل بالقانون لا يعفي صاحبه من التعرض للعقوبة أو مسئولية قيامه بأي عمل مخالف للقانون"، لا، بل الله بعدله يبين القوانين ليتفهمها الإنسان، وبمقدار إدراك الإنسان وعلمه تكون مسئوليته أمام الله[4].

ومن أهم الجوانب التي جذبت عقل هذا المفكر إلى الإسلام عقيدة التوحيد الخالص المنزه عن الصاحبة والولد؛ لأنه عاش فترةً يدين بالتثليث الذي لا يستطيع أحد من المسيحيين أن يسأل عن حقيقته هذا التوحيد الذي يرفع من شأن الإنسان، ولا يجعله ينقاد لبشر ولا لحجر ولا لحيوان ولا لشهوة كما يحدث في بلاد العالم المختلفة، والتوحيد الخالص هو الحرية الحقيقية التي تخلص الإنسان من أي أسر يقع فيه. فقال:

(1) سورة الجن : آيتا 2/1.
(2) سورة الأنعام الآية : 125.
(3) سورة الزمر الآية : 22.
(4) تراث الإسلام: ترجمة/ محمد زهير السمهوري ص : 18.

"استوقفني كثيراً نظام التوحيد في الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام. إن التوحيد يجعلني عبداً لله وحده، لست عبداً لأي إنسان، التوحيد في الإسلام يحرر الإنسان، ويجعله غير خاضع لأي إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده [1].

ثم دعا المسلم أن يعتز بدينه الذي يشرق على أنحاء المعمورة كالشمس، وأنه دين العقل والمنطق والبرهان ليس نظاماً كهنوتياً، ولا رجال دين نصبوا أنفسهم واسطة بين الله وخلقه، ولم يخصص طائفة لتولي مقاليد الأمور ومصائر الناس في الغفران لمن أرادوا وعدم الغفران لمن أرادوا. فقال: "للمسلم أن يعتز بدينه، فهو كالشمس تشرق على المسلمين وغير المسلمين، وللمسلم أن يعتز بإسلامه، فهو كالهواء النقي لا يستغني عنه الخلق، ولا حياة لهم بدونه"[2].

"إن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله والإنسان، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة "[3].

لقد أشاد هذا المستشرق بمنهج الإسلام في مجال التربية وبناء الفرد والمجتمع والأمة في أثناء إعداده لأطروحة الدكتوراه عن التربية وبناء المجتمع ، فوصل إلى قناعة هامة وهي أن بناء الأمم يحتاج إلى أسس عدة يرتكز عليها وهي الجانب السياسي والاقتصادي والروحي والاجتماعي، وكل هذه الجوانب حواه الإسلام فكان ذلك دافعاً له أن يقول: "إن بحثي لنيل إجازة الدكتوراه كان عن التربية وبناء الأمة، من هنا عرفت ما تحتاج إليه الأمم لبنائها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكذلك البناء الروحي، وأكتشف أن أركان الإسلام الأساسية تقدم أساساً عظيماً وقاعدةً قيمةً لإعادة بناء الأمة اجتماعياً واقتصادياً وروحيا، ولذلك فإذا سألتني لماذا أسلمت؟ سأقول لك؛ لأن الإسلام هو دين فريد من نوعه تشكل أركانه الأساسية قاعدة للحكم تهدي كلا من الضمير، وكذلك حياة المؤمنين به على حد سواء"[4].

---

(1) رجال ونساء أسلموا ج 4 ص 92.
(2) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن: إبراهيم خليل أحمد ص : 32.
(3) المصدر السابق : ص 273.
(4) رجال ونساء أسلوا: ج 5 ص: 65.

وقد صرح بأن تعاليم الإسلام ليست مجرد مجموعة من الأقوال الجوفاء الخالية من المحتوى العملي، لكن هي تعاليم عملية تسعى إلى الارتقاء بالمجتمع، وترسم للإنسان عامة والمسلم خاصة أن يعرف ما له وما عليه تجاه تعاليم الإسلام، وواجباته نحو الله ونحو نفسه ونحو الناس. فقال: "إن تعاليم الإسلام هي تعاليم عملية تقدم نموذجاً لبناء الأمم، كما يمنح الإسلام للضالين إحساساً بالأمل والاتجاه، ويمكّن الفرد المسلم من فهم واجباته نحو الله، ونحو بني الإنسان بصورة أفضل"[1].

توماس أرلوند:

هو المستشرق توماس الذي أنصف الإسلام، وأقر بالحق وسطره ضمن إنتاجه العلمي، وأقر ببعض الحقائق من أهمها:

1- عدم الإصغاء لمن يصف الإسلام بالكذب.
2- نفي الخداع والزور عن النبي ﷺ.
3- استمرار شعائر الإسلام قروناً عديدةً من الزمن يدين بها مئات الملايين من البشر في بقاع الأرض المختلفة حال حياته، وأكثر من مليار ونصف بعد وفاته. فقال: "لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن الإسلام كذب، وأن محمداً وحاشاه خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها، ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء، كذبة وخدعة؟ أما أنا فلا استطيع أن أرى هذا الرأي أبدا والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث كان أولى بها أَلاَّ تخلق"[2].

(1) رجال ونساء أسلوا، ج 5 ص: 56.
(2) الأبطال: ترجمة محمد السباعي، سلسلة من الشرق والغرب، عدد 11، الدار القومية (د. ت)، ص : 43/42.

ثم يوضح الفوائد التي قدمها الإسلام للعرب خاصة وللبشرية عامة، فقد حول سكان جزيرة العرب من رعاة الغنم والإبل إلى سادة العالم في أقل من قرن من الزمن، ودانت لهم أعظم قوتين وقتها، وهما الفرس والروم، فقال: "لقد اخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيا به من العرب أمة هامدة، وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يُسمَع لها صوت، ولا تُحَس منها حركة، فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه، ورسالة من قبله؛ فإذا بالخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقاً، ووسع نوره الأنحاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رِجْلٌ في الهند ورِجْلٌ في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة، ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة، وكذلك الإيمان العظيم، وهو مبعث الحياة، ومنبع القوة، وما زال للأمة رقي في درج الفضل، ما دام مذهبها اليقين، ومنهجها الإسلام"[1].

وهذا جولد تسيهر الذي لم يبرح أن يطعن في الإسلام بكل ما أوتي من ذكاء وفكر؛ لكن الحق يظهر من الإنسان فترة تغيب الظروف المؤثرة في حياته الفكرية، فيجد نفسه متجرداً لأن يسطر الحق، لا لجهل منه ولكن باقتناع منه؛ لأنه وجده حوى الجوانب الأخلاقية التي تنظم حياة الناس فيثمر الحب والإخلاص بينهم، وتنزع منه الأثرة وحب النفس، ودعا نفسه وغيره أن يكون عادلاً في الإقرار بذلك فقال: "علينا إن أردنا أن نكون عادلين بالنسبة إلى الإسلام، أن نوافق على أنه يوجد في تعاليمه قوة متجهة نحو الخير، وأن الحياة طبقاً لتعاليم هذه القوة يمكن أن تكون حياة طيبة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية، هذه التعاليم تتطلب رحمة جميع خلق الله، والأمانة في علاقات الناس بعضهم ببعض، والمحبة والإخلاص، وقمع غرائز الأثرة، كما تتطلب سائر الفضائل التي أخذها الإسلام عن الأديان السابقة، والتي يعترف محمد بأنبيائها عليهم السلام

(1) الأبطال: ترجمة محمد السباعي، ص: 66.

أساتذة له، ونتيجة هذا كله أن المسلم الصالح يحيا حياة متفقة مع أدق ما تتطلبه الأخلاق"[1].

غوستاف لوبون:

هذا المستشرق الذي سبقت له نصوص أنصف فيها الإسلام سبق ذكرها في المبحث الأول حيث نفى عن الإسلام أنه انتشر بالسيف العنف وأثبت أنه دين التسامح وأنه لا يعرف العنف مع المخالف إلا إذا بدأ هو بالاعتداء وها هو الآن يطل علينا مرة أخرى ليثني على الإسلام في جانب آخر ألا وهو جانب التوحيد المطلق الذي لا لبس فيه ولا خفاء ولا تناقض ولا اضطراب بخلاف النصرانية التي قدست الصور والتماثيل، وأحدثت تفاضلاً بين أتباعها، وحرمت عليهم الحديث في قضايا هامة في دينهم أهمها التثليث والتجسد والصلب حيث اعتبرتها أسراراً كنسية لا يحق لهم الحديث فيها فقال: "إن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الذي دعا إليه الإسلام مهيمن على كل شيء، ولا تحف به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسه، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد في العالم، إن سهولة الإسلام العظيمة تشتق من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، والإسلام خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلةٍ بوجود اله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من آية طبقة، رايته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد، ويسر لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثا عن التثليث والاستحالة، وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت"[2].

(1) العقيدة والشريعة ص: 22.
(2) حضارة العرب، ص: 125.

ثم أثنى على جانب الأخوة بين المسلمين في كل مكان، فلا يشعر المسلم أنه غريب في أي بلد حل فيها، فالمسلم المصري أخو المسلم الليبي، والمسلم السعودي أخو المسلم الأمريكي لا فرق بينهم جميعاً، فكل له حقوق وعليه واجبات، وهذه ميزة تميز بها الإسلام عن القوانين الأوربية التي تفضل بين طبقة وأخرى فقال: "ليس المسلمون أجانب في نظر بعضهم إلى بعض مهما اختلفت الشعوب التي ينتسبون إليها، ولا فرق في دار الإسلام بين الصيني المسلم والعربي المسلم في التمتع بجميع الحقوق، وبهذا تختلف الحقوق الإسلامية عن الحقوق الأوربية اختلافاً أساسياً "[1].

ليون[2]:

قال هذا المستشرق مادحاً الإسلام: "إن روائع الإسلام أنه يقوم على العقل وأنه لا يطالب أتباعه أبدا بإلغاء هذه الملكة الربانية الحيوية، فهو على النقيض من الأديان الأخرى التي تصر على أتباعها أن يتقبلوا مبادئ معينة دون تفكير ولا تساؤل حر، وإنما تفرض هذه المبادئ فرضاً يسلطان الكنيسة، أما الإسلام فانه يعشق البحث والاستفسار، ويدعو أتباعه إلى الدراسة والبحث والتنقيب والنظر قبل الإيمان، فالإسلام دين العقل والمنطق لذلك نجد أول كلمة نزلت على النبي محمد كلمة اقرأ، كما نجد أن شعار الإسلام هو الدعوة إلى النظر والتفكير قبل الإيمان، فالإسلام دين الحق وسلاحه العلم، وعدوه اللدود هو الجهل[3].

إن هذا المستشرق لمس جانباً مهماً من جوانب الإسلام ألا وهو تحرير العقل من التسليم بقضايا لا يعيها، ولا يستطيع أن يفهمها، ولكن يترك له مساحة كبيرة من التفكر والتأمل والإبداع والبحث ليصل إلى كثير مما غفل عنه، مستنداً في ذلك إلى

---

(1) حضارة العرب، ص: 389.

(2) هو البروفسور هارون مصطفي ليون انكليزي اعتنق الإسلام عام 1882، وكان زميلاً وعضواً فخرياً في العيد من الجمعيات الدينية في أوروبا وأمريكا، وكان أستاذاً قديراً في علم اللغويات وهو عالم جولوجيا له مكانته، وقد تلقي العديد من الأوسمة الفخرية أحدها من السلطان عبد الحميد الثاني.

قالوا عن الإسلام عماد الدين خليل ط دار ابن كثير، سوريا، ط 1، 1431- 2010، ص :207 .

(3) رجال ونساء اسلموا ج 7 ص 6،7 .

الآيات القرآنية التي تدعو إلى القراءة، وتحث على البحث والمدارسة، وخاصة أن أول آية نزلت من القرآن الكريم تدعو إلى القراءة والتعلم.

وإذا كان كل إنسان يبحث عن السعادة الحقيقية التي تثمر راحة البال والسكينة والطمأنينة في حياته، فإنه لا يشعر بهذا الإحساس إلا في ظل الإسلام، وهذا هو الذي دعا المستشرق "انجرام" لأن يعتنق الإسلام بعد دراسة طويلة لجميع جوانبه المختلفة، لينقذ نفسه من عبودية غير الله تعالى من مال أو شهوة، ويغيب عقله بسبب تعاطي المخدرات، وفي هذا المعني يقول انجرام[1]: إني اعتقد أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يدخل السلام والسكينة إلى النفس، ويفهم الإنسان العزاء وراحة البال والسلوى في هذه الحياة، وقد تسرب روح الإسلام إلى نفسي، فشعرت بنعمة الإيمان بالقضاء الإلهي وعدم المبالاة بالمؤثرات المادية من لذة وألم، لقد درست الدين الإسلامي مدة سنين، ولم اتخذه ديناً إلا بعد بحث طويل، لم أغير ديني إلا لكي أجد الراحة من ضجيج الحياة الجنوني، ولأنعم بالسكينة في ظلال الهدوء والتأمل بعيداً عن متاعب الهجوم والمحن التي يسببها التكالب على الكسب والتهالك على المال الذي أصبح اليوم معبود البشر وإلههم، ولأخلِّص نفسي من براثين الإغراء وخدع الحياة الباطلة، والشراب والمخدرات، أسلمت لكي أنقذ ذهني وعقلي وحياتي من الهدم والتدمير"[2].

ثم يفتخر بانتسابه لهذا الدين العظيم الذي لا يحس الإنسان فيه بغربة مهما كان بعيداً عن أهله ووطنه، فالمسلم المشرقي أَخٌ للمسلم المغربي، وهذه السعادة ليست مؤسسة على جرف هارٍ مؤقتةٍ بوقتٍ بل هي سعادةٌ أبديةٌ لا يحسها إلا من تذوقها. فقال: أنا اليوم ابن الإسلام، وإني سعيد أكثر مما كنت في أي يوم من أيام حياتي، وفي

(1) ولد في اسكتلنده في أواخر القرن التاسع عشر وشارك في الحرب العالمية الأولى، ثم رحل إلى العديد من بلاد الشرق، ودرس لغتها وأديانها، وانتهى به المطاف مصوراً سنيمائيا في هوليود، اعتنق الإسلام بعد أن وجد فيه ضالته المنشودة. قالوا عن الإسلام عماد الدين خليل، ط دار ابن كثير، سوريا، ط1، 1431- 2010، ص: 133.

(2) رجال ونساء اسلموا: ج1، ص: 32.

مدينتي الغريبة ومع ثيابي الغريبة سعيد كمؤمن يدين بالإسلام الخالد الذي هو أكمل دين سماوي ارتضاه الله للبشرية[1].

وأختم هذه النصوص بهذا القول الذي ينبئ عن إنصاف حقيقي للدين الإسلامي الذي لم يغفل مطالب الروح والجسد معاً بل كان هناك امتزاج واتحاد بينهما، ولأن الحياة لا تسير بجانب دون الآخر، فقال شاعر فرنسا (لامارتين): "الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يفي بمطالب البدن والروح معاً، دون أن يُعرِّض المسلم لأن يعيش في تأنيب الضمير... وهو الدين الوحيد الذي تخلو عباداته من الصور، وهو أعلى ما وهبه الخالق لبني البشر"[2].

وبعد فهذا قليل من كثير من شهادات المستشرقين الذين أنصفوا فيها الإسلام، وإن كانت لهم مطاعن في الإسلام، لكن في حالة تجردهم للحق يعبروا عن الحقيقة الناصعة في إنصافهم للإسلام، والمتتبع لما صنفه المستشرقون يدون كماً زاخراً من الكتب؛ ليعرف غير المسلمين الحق الذي لا مراء، ويعتز ويتمسك المسلم بإسلامه، ولا يسير وراء من باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل.

النتائج:

من هذا البحث أستخلص بعض النتائج، ومن أهمها:

1- أن الاستشراق في أهم مفهوم له يعنى بدراسة العلوم الشرقية، ثم تطور حتى شمل دراسة الإسلام ونبيه وما يتصل بهما من علوم.
2- أن أهداف المستشرقين لم تتوقف على الجانب الديني فقط بل شملت الجانب السياسي والاقتصادي والاستعماري والتجاري حتى يعوضوا ما ينفق على ما يكتبونه ضد الإسلام والمسلمين.
3- أن المستشرقين ليسو صنفاً واحداً بل تعددت أصنافهم وكل يخدم الصنف الذي ينتمي إليه.

---

(1) رجال ونساء اسلموا: ج1، ص : 34.

(2) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي – دار السلام – القاهرة ط 1 : 1418 : 1998 ص 71-72.

4- أن شهادات المستشرقين تناولت جوانب الإسلام المختلفة فلم تقتصر على جانب دون غيره؛ لأن الإسلام جذب هؤلاء بما حوى من حقائق ثابتة لا ينكرها إلا جاهل حاقد معاند.

5- لقد درس المستشرقون سيرة النبي ﷺ وشخصيته دراسة مستفيضة حتى خرجوا علينا بهذه الأقوال التي ذاع صيتها في العالم كله.

6- لقد اعترف المستشرقون بشمولية الإسلام وتناوله حياة الناس كاملة، دون تفريق بين العقيدة والعبادات والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وعدم مصادمته للعلم، والحجر على العقل.

7- قارن المستشرقون المنصفون بين نظرة الإسلام للعقل ونظرة الأديان التي حُرِّفت له، فاقروا بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي كرم العقل، وقدر اكتشافه وابتكاره، وترك له المساحة الكبيرة ليفكر في الكون كله من حوله، وحرره من القيود التي فرضتها عليه النصرانية المحرفة حتى ألغت دوره تماماً؛ حتى صار آلة معطلة بما فرضت عليه من طقوس وأسرار فلا يسأل عن أي شيء.

8- نفت نصوص المستشرفين التي أنصفوا فيها الإسلام كل ما تردد من باطل وبهتان وزيف عليه من وصفه بأنه انتشر بالسيف، وإكراه المسلمين غيرهم على الدخول فيه، وظلمهم لغير المسلمين في ديار الإسلام واضطهادهم.

وفي ختام هذا البحث أحمد اله العلي القدير على توفيقه لي أن أتممت هذا البحث، وأن يكون خطوة في طريق نصرة الإسلام والمسلمين، فإن كنت أصبت فمن فضل الله عليّ، وإن كنت أخطأت فمن نفسي والشيطان، والله منه براء، وأسأله تعالى أن يتجاوز عن زلتي وتقصيري، وأن ينفعني بما كتبت، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يكون في ميزان حسناتي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.